أروع ما قيل
في
الزهد والتصوف
إعداد
إميل ناصيف
دار الجيل
بيروت

أُرْوَعُ ما قِيل

في

الزُهْدِ والتَّصَوُّف

أروع ما قيل في الزهد والتصوف

إعداد

إميل ناصيف

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

القسم الأول

في الزهد

الزهد

تعريفه:

الزهد هو ترك لذائذ الدنيا الفانية طمعاً بلذائذ الآخرة الخالدة. قال الغزالي: «هو أن تأتي الدنيا الإنسانَ راغمةً صفواً عفواً، وهو قادر التنعّم بها من غير نقصان جاه، وقبح اسم، فيتركها خوفاً من أن يأنس بها، فيكون آنساً بغير الله محبّاً لما سوى الله، ويكون مشركاً لما في حبّ الله غيره»[1].

أمّا الشعر الزهدي فهو الذي يدعو إلى الموعظة، وتوجيه الناس نحو التنسّك والعبادة، معتبراً أنّ هذه الحياة ما هي إلاّ دار ممرّ إلى دار مقرّ، وما زينتها وبهرجها إلاّ خداع للمرء، وإغراء له كي تنسيه خالقه، وتجعله عبداً لشهواته ونزواته. فإذا أراد الإنسان حياة هنيئة في الآخرة فما عليه إلاّ أن ينبذ هذه الدنيا، ويعدّ نفسه لحياة أبديّة، دون أن ينزلق في مهاوي عيش زائل، وعالم حقير فان.

عوامله:

لا بدّ لكلّ حدث اجتماعيّ من عوامل تهيئه. فمن عوامل الزهد:

١ - الدين: فجميع الأديان السماويّة تدعو إلى حياة أخرى، وما هذه الحياة

---

(١) إحياء علوم الدين. ج ٤، ص ١٨٧.

الدنيا إلاّ ممرّ إلى حياة خالدة؛ ومن هذه الحياة يتوقّف مصير الإنسان: فإن كان صالحًا فمصيره الجنّة، وإن كان طالحًا فمصيره الجحيم.

وقد وضعت هذه الأديان، لكي يكون الإنسان صالحًا، بعض الشروط ومنها: التقوى والورع، ومحبّة الآخرين فضلاً عن الاعتراف بالله ومحبّته، وكبت الشّهوات التي تؤدي بمرتكبها إلى المفاسد الخلقيّة، ومن ثمّ إلى الانهيار الاجتماعي.

من هنا يجب على المؤمن أن يؤدّي الفرائض، ويبتعد عمّا نهى عنه الدين. ومن المؤمنين الذين اطمأنت نفوسهم الى الدين، وارتضوا بشرائعه، قوم نذروا أنفسهم لله فكان رجال الدين والورعاء الصالحون، والزّهاد، الذين تنسّكوا، وانقطعوا للعبادة، ولبسوا الخرق، واكتفوا بالضروري من المأكل والمشرب، مطلّقين الدنيا ومباهجها، معتبرين إيّاها جيفة نتنة، والمتهالكين عليها كالطفيليات أو الحشرات التي تحوم حول الجيف.

٢ - **الحرمان**: ومن هؤلاء الزهّاد من اتّخذ هذا المنحى نتيجة الفقر المدقع والحرمان الشديد؛ إذ نظروا إلى الدنيا ولذائذها، وحاولوا التمتّع بها، ولكنّهم لم يوفّقوا لسبب من الأسباب، فيئسوا، وآثروا الزهد على الكفاح في سبيل العيش الهنيء، وناصبوا العداء حياة الرغد والهناء، وحاربوا طالبيها مصوّرين هذه السعادة على أنّها باطل وزيغ.

ولكنّ هناك من الزهّاد من عافت نفسه هذه اللذات، إمّا لكثرة ما انغمس في نعيمها، وانزلق في حمآتها المفسدة، فأصيب بردّة فعل، حملته على إدراك بطلان عمله، فاتّعظ، وإمّا لِما رأى من إقبال الناس على المفاسد، فأحبّ أن ينقذ نفسه من هذه المهالك، فآثر الزهد واعتكف. وقد يكون هذا الأمر ناتجاً عن جنوح في العقل، أو نتيجة عقد نفسيّة ومركّبات نقص، لم يستطع من جرّائها مسايرة المجتمع أو معارضته، فكان الزهد.

الزهد عبر العصور

في الجاهلية:

عرف العربُ الزهدَ في العصر الجاهليّ، وذلك حين عرفوا المسيحيّة؛ فكان منهم النسّاك والمتعبّدون أمثال: ورقة بن نوفل، وقيس بن ساعدة، وغيرهما؛ وكان لبعضهم أديرة ورهبانيات، وكان بعضهم الآخر يتجوّل في أنحاء الجزيرة داعياً الى عبادة الإله وترك الأوثان، وأنّ هناك حياة أخرى، وحسابًا وعقابًا، لذلك أن يَستعدّ كلّ منّا إلى اليوم الآخر بالأعمال الصالحة، بالابتعاد عن الأعمال الشّريرة والفاسدة. تحت تأثير هذه الأفكار، انتشرت فكرة الزهد في بعض الأشعار الجاهليّة كقول لبيد:

ألاَ كُلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطل ... وَكُلُّ نَعِيمٍ لا مَحَالَةَ زائلُ

أو قول زهير بن أبي سلمى:

ألا لا أَرَى بَعْدَ الحَوَادِثِ باقيًا ... ولا خالدًا إلاّ الجِبَالَ الرَّوَاسِيَا

أَلَمْ تَرَ أنّ الله أهْلَكَ تُبَّعًا ... وأهْلَكَ لُقْمانَ بْنَ عادٍ وَعَادِيَا

أو قول أميّة بن أبي الصلت:

وَحَالاَتُ دُنْيا لا تَدُومُ لأهْلِها ... وبينا الفَتَى فيها مَهيبٌ مُسَوَّدُ

إذا انْقَلَبَتْ عَنْهُ وَزَالَ نَعِيمُها ... وأَصْبَحَ مِنْ تُرَبِ القُبُورِ يُوَسَّدُ

فَكُنْ خائفًا لِلْمَوتِ والبَعْثِ بَعْدَهُ ... ولا تَكُ مِمَّنْ غرَّهُ اليَوْمُ أو غَدُ

فإنّكَ في دُنْيا غرورٍ لأهْلِها ... وفيها عَدُوٌّ كَاشِحُ الصَّدْرِ يُوقِدُ

وخلاصة القول إنَّ هذه النزعة الزهديّة كانت سطحيَّة لا تتعدّى حياة البشر، وتقلّب الدهر، وضعف الإنسان أمام حوادثه، والاستعداد لليوم الآخر، وعدم الاغترار بمباهج هذه الدنيا الزائلة.

في صدر الإسلام:

ولمّا جاء الإسلام، نشر بين القوم أفكاراً جديدة تقوم على التقوى والصلاح، والابتعاد عن المنكر، ابتغاء مرضاة الله، وطمعًا بنعيمه، وخوفًا من جحيمه، كقوله تعالى ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الحَيَاة الدُّنْيَا وزينتها نُوَفِّ إليهم أعْمَالَهُمْ فيها وهم فيها لا يُبْخَسُون. أولئك الذين لَيْسَ لَهُمْ في الآخِرَةِ إلاّ النار، وحَبِطَ ما صَنَعُوا فيها وَبَاطِلٌ ما كانُوا فيها يَعْمَلُون﴾[1] و﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تُلْهِكُمْ أمْوَالُكُمْ ولا أولادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ومَنْ يَفْعَلْ ذلك فأُولئِكَ هُمُ الخاسِرُون﴾[2]، كما أن هناك أحاديث نبويّة تدعو إلى التزهّد: «الدنيا سجن المؤمِن وجنّة الكافر»، و«اللهمّ لا عيش إلاّ عيش الآخرة».

والواقع أنّ الدين الإسلامي قد جمع بين الدين والدنيا، فإذا به يدعو المؤمن إلى التمتّع بطيّبات الدنيا كقوله تعالى: ﴿فإذا قَضَيْتَ الصَّلاَةَ فانْتَشِرُوا في الأرضِ وابْتَغُوا من فَضْلِ الله﴾[3] و﴿آبْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الأخيرَةَ ولا تَنْسَ نصيبَكَ من الدُّنْيَا﴾[4]. ولو رحنا نتحرّى الآيات التي تجمع بين الدين والدنيا لوجدناها كثيرة جدًّا. عدا الأحاديث النبويّة التي تحث على العبادة والتقوى، وحقوق الله، والتمتّع بلذائذ الحياة المشروعة، كقوله (ﷺ): «الطاعم الشاكر خير من الصوّام الزاهد» و«إنّما حبّب إليّ من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرّة عيني في الصلاة» و«ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا

---

(١) هود: ١٥.

(٢) المنافقون: ٩.

(٣) الجمعة: ١٠.

(٤) القصص: ٧٧.

الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه». لذلك وجدنا فئة من المؤمنين ترى أنّ حياة الإيمان والتقوى لا تتعارض والتمتّع بطيّبات هذا العالم حتى يحين أوان التمتّع بالجنّة وسعادتها، ومنهم من رغب عن المال والغنى كالزبير بن العوام، وهو أحد المبشّرين بالجنّة، الذي ترك من الأملاك ما يقدّر بأربعين مليونًا من الدراهم، وطلحة بن عبيدالله الذي ترك ما يقدر بثلاثين ألف درهم، ومن النقد ما بلغ مئة كيس من الجلد في كلّ كيس ثلاثة قناطير من الذهب. هذا بالإضافة إلى حياة الخلفاء الراشدين التي كانت حياة زهد وتقشّف.

في العصر الأموي:

لمّا اتّسعت الامبراطوريّة الإسلاميّة، وجد العرب أنفسهم أمام ثروات طائلة، وضروب جديدة من اللهو والترف، فانغمس بعضهم فيها، وأحجم بعضهم عنها، فراحوا ينشدون المثل العليا الإسلاميّة في الزهد والإعراض عن الدنيا، أمثال الحسن البصري الذي راح يرشد الناس، ويدعوهم إلى مكارم الأخلاق، مزيّناً لهم التقوى، مزهّدًا إيّاهم بمباهج الدنيا الفانية. وهذا التزهّد مبنيّ على الخشوع وتقوى الله، والخوف من غضبه. أمّا الزهد المبني على أساس صوفي فمثّلته رابعة العدوية التي تقول: «إلٰهي، إذا كنت أعبدك رهبة من النار فاحرقني بنار جهنّم، وإذا كنت أعبدك رغبة في الجنّة فاحرمنيها، أمّا إذا عبدتك من أجل محبّتك فلا تحرمني، يا إلهي، من جمالك الأزلي».

في العصر العباسي:

في العصر العباسي اتّسعت رقعة الامبراطوريّة الإسلاميّة، وتمازجت شعوب كثيرة بعضها ببعض، فنشأ من جرّاء ذلك حركات علميّة، وصراعات فكريّة، فازدادت في نفوس بعض المؤمنين العاطفة الدينية بقدر ما ازداد عند سواهم العبث والمجون، فأصبحت الحضارة العباسية: «مسجدًا وحانة، وقارئًا وزامرًا، ومجتهدًا يرقب الفجر، ومصطبحًا في الحدائق، وساهرًا في تجهّد، وساهرًا في طرب،

وتخمة من غنى، ومسكنة في إملاق، وشكًّا في دين، وإيمانًا في يقين. كلّ هذا كان في العصر العباسي، وكلّ هذا كان كثيرًا »[1]. ونتيجة لهذه لعاطفة الدينية ظهر شعر الزهد المطعّم بأفكار فلسفيّة جديدة، نتيجة تفاعل الثقافات، وفيه ترهيب من الموت، ودعوة إلى التأمّل، والنظر في ما وراء الوجود. ولعلّ أبرز من يمثل هذا التيار هو « أبو العتاهية ».

(١) أحمد أمين. ضحى الإسلام. ج ١، ص ١٦٠.

عديّ بن زيد

هو عديّ بن زيد بن حمّا بن زيد العبادي (٠٠٠ ـ نحو ٣٥ ق هـ/ نحو ٥٩٠ م) شاعر من دهاة الجاهليِّين. كان قرويًّا من أهل الحيرة، فصيحًا يُحسن العربيّة والفارسيّة والرمي بالنَشّاب. وهو أوّل من كتب بالعربيّة في ديوان كسرى، اتّخذه في خاصّته، وجعله ترجمانًا بينه وبين العرب. له ديوان شعريّ. كان نصرانيًا، ومن شعره الزهديّ نقتطف ما يلي:

* * *

أينَ أهلُ الديارِ مِنْ قومِ نوحٍ ... ثم عادٌ مِن بعدِها وثمودُ

بينما همْ على الأسِرَّةِ والأنماطِ ... أفضَتْ إلى التُرابِ الخدودُ

وصَحيحٌ أمْسَى يَعودُ مَريضًا ... وهو أدْنَى لِلْموتِ مِمَّنْ يَعُودُ

ثُمَّ لَمْ ينقَضِ الحديثُ ولكنْ ... بعد ذا كُلِّه وذاكَ الوَعيدُ

* * *

عدي بن زيد والنعمان

رُوِيَ أَنَّ ٱلنُّعْمَانَ بْنَ ٱلْمُنْذِرِ خَرَجَ مُتَصَيِّداً وَمَعَهُ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ فَمَرّا بشَجَرَةٍ. فَقَالَ عَدِيٌّ بْنُ زَيْدٍ. أَيُّهَا ٱلْملكُ أَتدْرِي مَا تَقُولُ هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ. قَالَ: لَا. قَالَ فَإِنَّهَا تَقُولُ:

مَنْ رَآنَا فَلْيُحَدِّثْ نَفْسَهُ ... أَنَّهُ مُوفٍ عَلَى قُرْبِ زَوَالْ

فَصُـــرُوفُ الدَّهْرِ لَا تَبْقَــى لَهَـــا وَلَمَـا تَـــأْتِـي بِـــهِ صُـــمُّ الجبَـــالْ

رُبَّ رَكْبٍ قَـدْ أَنَـاخُـوا حَـوْلَنَـا يَشْـرَبُـونَ ٱلْخَمْـرَ بِـٱلْمَـاءِ ٱلـزُّلَالْ

وَٱلْأَبَـــارِيـــقُ عَلَيْهَـــا فُـــدُمٌ وَجِيَـادُ ٱلْخَيْـلِ تَجْـرِي بِـــٱلْجِلَالْ

عَمَـــرُوا ٱلــدَّهْــرَ بِعَيْشٍ حَسَــنٍ أَمِنُـــى دَهْـــرِهِـم غَيْـــرُ عِجَـــالْ

عَصَـفَ ٱلـدَّهْـرُ بِهِـمْ فَـٱنْقَـرَضُـوا وَكَذَاكَ ٱلـدَّهْـرُ حَـالًا بَعْـدَ حَـالْ

قَـالَ: ثُمَّ جَاوَزَا ٱلشَّجَرَةَ فَمَرَّا بِمَقْبَرَةٍ. فَقَالَ لَهُ عَدِيٌّ: أَتَدْرِي مَا تَقُولُ هٰذِهِ ٱلْمَقْبَرَةُ. قَال: لَا . قَالَ: فَإِنَّهَا تَقُولُ:

أَيُّهَـــا الرَّكْـــبُ المُخِبُّـــو نَ عَلَـــى ٱلْأَرْضِ ٱلْمُجِـــدُّونَـــا

كمـــاً أَنْتُـــمْ كَـــذَا كُنَّـــا كمـــا نَحْـــنُ تَكُـــونُـــونَـــا

★ ★ ★

وقال:

أيْــنَ كِسْـرى كسـرى الملــوكِ أنــو شـروانَ أمْ أيـنَ قبلَـه سـابـورُ

وبنو الأَصْفَرِ الكِـرامِ ملـوكُ الرُّومِ لــم يبـــقَ منهـــمُ مـــذكـــورُ

وأخـو الحصْـنِ إذْ بنـاه وإذْ دِجْلَـةُ تُجْبَـــى إليـــه والخـــابـــورُ[1]

شـــادَهُ مَـــرْمَـــرًا وجلَّلَـــه كِلْسًـــا فللطيْـــرِ فـــي ذُراهُ وُكُـــورُ

لـم يَهَبْــه رَيـــبُ المنـــونِ فبـــادَ الملـــكُ عنـــهُ فبـابُـــه مهجـــور

ثـم صـارُوا كـأنَّهـم وَرَقٌ جَـفَّ فَـأَلْـوَتْ بـــهِ الصَّبَـــا والدَّبـــورُ[2]

★ ★ ★

---

(١) الخابور: نهر في الشام.

(٢) الصَّبا: ريح شرقيّة خفيفة، والدَّبور: ريح غربيّة.

الإمام عليّ بن أبي طالب

هو أبو الحسن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشميّ القرشيّ (٢٣ ق هـ/ ٦٠٠م - ٤٠ هـ/ ٦٦١م) أمير المؤمنين، ورابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشَّرين، وابن عمّ النبيّ وصهره، وأحد الشجعان الأبطال، ومن أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء، وأوّل الناس إسلامًا بعد خديجة. ولد بمكّة، وربي في حجر النبيّ (ﷺ)، ولم يفارقه. كان اللواء بيده في أكثر المشاهد. جمعت خطبه وأقواله ورسائله في كتاب سُمّي «نهج البلاغة»، ولأكثر الباحثين شكّ في نسبته كلّه إليه. له ديوان شعريّ، قيل: إنّ معظمه مدسوس عليه. ومن هذا الديوان نقتطف من قصائده الزهديّة ما يلي:

* * *

باتُوا على قُلَلِ الأجبالِ تَحْرُسُهمْ غُلْبُ الرّجالِ فَلَمْ تَنْفَعْهُمُ الْقُلَلُ[1]

واسْتُنْزلوا بعدَ عِزٍّ عنْ معاقِلِهمْ فأُودِعوا حُفَرًا، يا بئسَ ما نَزَلوا

ناداهُمُ صارخٌ مِنْ بعدِما دُفِنوا أينَ الأسِرَّةُ والتِّيجانُ والْحُلَلُ

أينَ الوجوهُ التي كانتْ مُنَعَّمةً مِن دونِها تُضْرَبُ الأستارُ والكِلَلُ[2]

---

(١) قلل الجبال: قممها.

(٢) الكلل: جمع كلة، وهي الستر الدقيق.

فَأَفصَحَ القبرُ عنهمْ حينَ ساءلهم: تلكَ الوجوهُ عليها الدّودُ يَقْتَتِلُ
قدْ طالما أكلوا دهرًا وما شرِبوا فأصبحوا بعدَ طولِ الأكلِ قد أُكِلوا
وطالما كثَّروا الأموالَ وادّخروا فخلّفوها على الأعداءِ وَارْتحلوا
وطالما شيَّدوا دُورًا لِتَحْصِنَهم ففارَقُوا الدّورَ والأهلينَ وانْتَقلوا
أضحتْ مساكِنُهم وَحْشًا مُعَطَّلةً وساكِنوها إلى الأجداثِ[1] قد رَحلوا
سلِ الخليفةَ إذ وافتْ منيَّتُه أينَ الجنودُ وأينَ الخيلُ والْخَوَلُ[2]
أينَ الكنوزُ التي كانتْ مفاتحُها تنوءُ بالعصبةِ المقوينَ لوْ حَملوا[3]
أينَ العبيدُ الأُولى أرصدْتَهم عددًا أينَ العديدُ وأينَ البيْضُ والأَسَلُ[4]
أينَ الفوارسُ والغِلْمانُ ما صَنَعُوا أينَ الصَّوارِمُ والخِطِّيَّةُ الذُّبُلُ[5]
أين الكُفاةُ ألمْ يَكْفُوا خليفتَهُمْ لَمّا رَأَوْه صريعًا وهْو يَبْتَهِلُ
أين الكماةُ أما حاموا أما غَضِبوا أين الحُماةُ الّتي تُحمى بها الدُّوَلُ[6]
هيهاتَ ما منعوا ضَيْمًا ولا دَفَعوا عنكَ المنيَّةَ إذْ وافى بها الأَجَلُ[7]
ما ساعدوكَ ولا واساكَ أقربُهم بَلْ أسْلَموكَ لها يا بِئْسَ ما فَعَلُوا
ما بالُ قبرِكَ لا يُنْثَى به أحدٌ ولا يَطُورُ به مِنْ بَيْنِهم رَجُلُ[8]

---

(١) الأجداث: جمع جدث. وهو القبر.
(٢) الخول: الخدم.
(٣) العصبة: الجماعة. المقوين: الفقراء.
(٤) البيض: السيوف. الأسل: الرماح.
(٥) الخطيّة الذُّبلُ: القنا المسنّة. الصوارم: السيوف القاطعة.
(٦) الكماة: الأبطال.
(٧) الضَّيم: الذّلّ. المنيّة: الموت.
(٨) يُنثى: يعلم. يطور: يطوف.

ما بالُ قصرِكَ وَحْشًا لا أنيسَ بهِ   يغشاكَ مِن كنفيْهِ الرَّوعُ والوَهَلُ[1]
ما بالُ ذكرِكَ منسيًّا ومُطَّرَحًا   وكلُّهم باقْتسامِ المالِ قد شُغِلوا
لا تُنْكِرنَّ فما دامتْ على مَلِكٍ   إلاَّ أناخَ عليه الموتُ والوَجَلُ
وكيفَ يُرجى دوامُ العيشِ متّصلًا   وَرُوحُه بِجبالِ الموتِ مُتَّصِلُ
وجسمُه لِلُبَاناتِ الرَّدَى غَرَضٌ   ومُلْكُهُ زائِلٌ عَنْهُ ومُنْتَقِلُ[2]

★ ★ ★

وقال:

لكَ الحمدُ يا ذا الجودِ والمجدِ والعُلى   تباركْتَ تُعطي مَن تَشاءُ وَتَمْنَعُ
إلهي وخلاّقي وحِرزي ومَوْئِلي   إليكَ لدى الإعْسارِ واليُسرِ أفْزَعُ[3]
إلهي لَئِنْ خَيَّبْتَني وَطَرَدْتَني   فَمَنْ ذا الذي أَرْجو ومن ذا أُشَفِّعُ
إلهي تَرَى حالي وَذُلِّي وفاقَتي   وأَنْتَ مناجاتي والخفيَّةَ تَسْمَعُ
إلهي فلا تَقْطعْ رجائي ولا تُزغْ   فؤادي فلي في بابِ جودِك مطمعُ
إلهي لَئِنْ عَذَّبْتَني أَلْفَ حِجَّةٍ   فحَبْلُ رجائي منكَ لا يتقطَّعُ[4]
إلهي إذا لم تَعْفُ عن غَيرِ مُحْسِنٍ   فَمَنْ لِمُسيءٍ بالهوى يَتَمتَّعُ
إلهي لَئِنْ فَرّطْتُ في طَلَبِ التُّقى   فها أنا إثْرَ العَفْوِ أَقْفُو وَأَتْبَعُ
إلهي أَقِلْني عَثْرتي وَامْحُ حَوْبَتي   فإنِّي مُقِرٌّ خائِفٌ مُتَضَرِّعُ[5]

★ ★ ★

---

(١) الروع والوهل: الخوف.
(٢) اللبانات: الأغراض. والردى: الهلاك.
(٣) الحِرْز والموئل: الحصن والملجأ. أفزع: ألجأ.
(٤) الحجّة: السنة.
(٥) أقلني عثرتي: اعفُ عني. والحوبة: الذنب والخطيئة.

أبو العتاهية

هو إسماعيل بن القاسم بن سويد العينيّ العَنَزيّ (من قبيلة عنزة) بالولاء (١٣٠ هـ / ٧٤٨ م - ٢١١ هـ / ٨٢٦ م) شاعر مُكثِر، سريع الخاطر، في شعره إبداع. كان ينظم المئة، والمئة والخمسين بيتًا في اليوم حتى لم يكن للإحاطة بجميع شعره من سبيل. نشأ في الكوفة، وسكن بغداد. أكثر شعره في الزهد. ومن قصائده في الزهد نقتطف ما يلي:

بَكَيْتُ على الشّبابِ بِدَمْعِ عَيْني ... فلَم يُغْنِ البكاءُ ولا النَّحيبُ

فيا أسَفا أسِفْتُ على شَبابٍ ... نَعاهُ الشَّيْبُ والرأسُ الخَضِيبُ

عَرِيتُ مِن الشَّبابِ وكان غَضًّا ... كما يَعْرى منَ الوَرقِ القضِيبُ

فيا ليْتَ الشبابَ يَعودُ يومًا ... فَأُخْبِرَهُ بما صنعَ المَشيبُ

* * *

لِدُوا لِلْمَوْتِ وابْنُوا لِلْخَرابِ ... فَكلُّكُم يَصيرُ إلى ذَهابِ

لِمَن نَبْني ونحنُ إلى تُرابٍ ... نصيرُ كما خُلِقْنا مِنْ تُرابِ

ألا يا موتُ لم أرَ مِنْكَ بُدًّا ... أبَيْتَ فلا تَحيفُ ولا تُحابي[1]

---

(١) الحيْف: الجور والظلم، وقد حاف عليه. حاباه مُحاباة وحِباءً: اختصَّه ومال إليه، وحاباه في البيع ونحوه: سامحه.

كـأنّـكَ قـد هَجَمْـتَ علـى مَشيبِي كمـا هجَـمَ المَشيـبُ علـى شَبـابِـي

* * *

نَعى عِنْـدَ ظـلِّ الشّبـابِ المشيـبُ ونـادتْـكَ بِـاسْـمِ سـواكَ الخطـوبُ
فكُـنْ مُسْتَعِـدًّا لِـداعـي المنـونِ فَكُـلُّ الذي هـو آتٍ قَـريـبُ
وقبلَـكَ داوى الطّبيـبُ المـريـضَ فَعـاشَ المَـريـضُ ومـاتَ الطَّبيـبُ

* * *

أنلْهُـو وأيّـامُنـا تَـذْهَـبُ ونَلعَـبُ والمـوتُ لا يَلْعـبُ
عَجِبْـتُ لِـذِي لَعِـبٍ قـد لَهـا عَجِبـتُ ومـا لـيَ لا أعجَـبُ
أيلهُـو ويلعَـبُ مَـنْ نَفْسُـهُ تَمـوتُ ومَنـزِلُـهُ يَخـربُ
نـرَى كـلَّ مـا سـاءَنـا دائبًـا علـى كـلِّ مـا سَـرَّنـا يَغلِـبُ[1]
نَـرى الخَلْـقَ فـي طبقـاتِ البِلـى إذا مـا هُـمُ صَعَّـدوا صـوَّبُـوا[2]
نَـرى الليـلَ يَطلُبُنـا والنهـارَ ولـمْ نَـدرِ أيُّهُمـا أطْلـبُ
أحـاطَ الجَـديـدانِ جَمْعًـا بِنـا فليسَ لنـا عنهُمـا مَهْـربُ[3]
وكـلٌّ لـهُ مُـدَّةٌ تَنْقَضِـي وكـلٌّ لـهُ أثَـرٌ يُكْتَـبُ
وما زلْـتَ تجـري بـكَ الحـادثـاتُ فَتَسْلَـمُ منهُـنَّ أو تُنْكَـبُ
ستُعْطَـى وتُسْلَـبُ حتـى تكـو نَ نَفسُـكَ آخِـرَ مـا يُسْلَـبُ

* * *

---

(١) دأب في عمله: جدَّ وتعب، فهو دائب. والدَّائبان: الليل والنهار.
(٢) صَعَّد فيه تصعيدًا: أي انحدر. صَوَّب: أصاب من الصواب، وهو ضِدَ الخطأ.
(٣) الجديدان: الليل والنهار.

وعَظَتْكَ أجْداثٌ خُفُتْ ... فيهِنّ أجْسادٌ سُبُتْ[1]
وتكلَّمَتْ لكَ بالبِلى ... مِنهُنّ ألْسِنَةٌ صُمُتْ
وأرَتْكَ قبرَكَ في القُبو ... رِ وأنت حَيٌّ لَمْ تَمُتْ
وكأنّني بكَ عن قَر ... يبٍ رهْنَ حَتْفٍ لَمْ يَفُتْ[2]

★ ★ ★

خانَكَ الطَّرْفُ الطَّموحُ ... أيُّها القلبُ الجَموحُ
لِدَواعِي الخَيْرِ والشَّرِّ ... دُنُوٌّ ونُزوحُ[3]
هَلْ لِمَطْلوبٍ بِذَنْبٍ ... تَوْبَةٌ منهُ نَصوحُ
كَيْفَ إصلاحُ قُلوبٍ ... إنَّما هُنَّ قُروحُ[4]
أحْسَنَ اللهُ بِنا ... أنّ الخَطايا لا تَفوحُ
فإذا المسْتورُ مِنّا ... بين ثَوْبَيْهِ فُضوحُ
كمْ رأيْنا مِنْ عَزيزٍ ... طُوِيَتْ عنْهُ الكُشوحُ
صاح مِنْهُ بِرَحيلٍ ... صائِحُ الدَّهْرِ الصَّدوحُ
مَوْتُ بعضِ الناسِ في الأرْ ... ضِ على بَعْضٍ فُتوحُ
سَيَصيرُ المرءُ يوْمًا ... جَسَدًا ما فيهِ رُوحُ
بَيْنَ عينَيْ كلِّ حَيٍّ ... عَلَمُ الموتِ يَلوحُ

(١) الأجداث: جمع جَدَث: القبر. خُفُت: جمع خافت، وخفَت الصوت: سَكَن. سُبُت: جمع سابت، وسبت سُباتا: نام: والمَسْبوت: الميْت.
(٢) الحتْف: الموت، والجمع حُتُوف، ومات فلانٌ حَتْف أنفِه: إذا ماتَ من غير قتْلٍ ولا ضَرْب.
(٣) النُزُوح: البعد.
(٤) القروح: جمع قَرْح، وهو الجُرْح.

كُلُّنـا فـي غَفْلَـةٍ والـ ـمَـوْتُ يَغْـدُو ويَـروحُ
لِبَنـي الدُّنيـا مِـنَ الدُّنـ ـيـا غَبـوقٌ وصَبُـوحُ[1]
رُحْـنَ فـي الوَشْـيِ وأصبَحْـ ـنَ عليهِـنَّ المُسُـوحُ[2]
كـلُّ نَطّـاحٍ مِـنَ الدَّهْـ ـرِ لَـهُ يَـوْمٌ نَطـوحُ
نُـحْ على نفسِـكَ يـا مسْـ ـكيـنُ إنْ كنـتَ تَنـوحُ
لَتَمـوتَـنَّ وإنْ عُمِّـ ـرْتَ مـا عُمِّـرَ نُـوحُ

★ ★ ★

ألا إنّنـا كُلّنـا بـائِـدُ وأيُّ بَنـي آدمٍ خـالِـدُ
وبَدْؤُهُـمْ كـانَ مِـنْ رَبِّهِـمْ وكـلٌّ إلـى ربِّـهِ عـائِـدُ
فيـا عجبـاً كيـفَ يَعْصَـى الإلـهُ أمْ كيـفَ يَجْحَـدُه الجـاحِـدُ
وللهِ فـي كُـلِّ تحْـريكـةٍ علَيْنـا وتسْكينـةٍ شـاهِـدُ
وفـي كـلِّ شـيءٍ لَـهُ آيَـةٌ تَـدُلُّ علـى أنَّـهُ واحِـدُ

★ ★ ★

ما لِلْجَديـديْـنِ لا يَبْلـى اختلافُهمـا وكـلُّ غـضٍّ جـديـدٍ فيهمـا بـالِ
يا مَنْ سَلا عـنْ حبيـبٍ بعـدَ مِيتَتِـهِ كم بعْد موتِكَ أيضاً عنكَ مِنْ سالِ[3]
كـأنَّ كـلَّ نعيـمٍ أنـتَ ذائِقُـهُ مِن لذَّةِ العيشِ يَحكي لَمْعَةَ الآلِ[4]
لا تَلْعَبَنَّ بـكَ الدُّنيـا وأنـتَ تَـرَى مـا شِئْـتَ مِـنْ عِبَـرٍ فيهـا وأمثَـالِ

(١) الغبوق: الشرب بالعَشِيّ، والصَّبوح: الشرب بالصباح.
(٢) المُسوح: جمع مِسْح، وهو الكساء من شَعر، وثوب الراهب.
(٣) سلاه وسلا عنه: نسيه وطابتْ نفسه بعد فراقه.
(٤) الآل: السّراب.

ما حيلةُ الموتِ إلاّ كلُّ صالحةٍ   أوْ لا فما حيلةٌ فيهِ لِمُحْتالِ

★ ★ ★

رغيفُ خُبْزٍ يابِسٍ   تأكلُهُ في زاويَهْ
وكوزُ ماءٍ باردٍ   تَشرَبُهُ مِنْ صافِيَهْ
وغُرْفَةٌ ضَيِّقَةٌ   نفسُك فيها خالِيَهْ
أوْ مَسْجِدٌ بِمَعْزِلٍ   عنِ الورَى في ناحِيَهْ
تدرُسُ فيهِ دَفْتَرًا   مُستَنِدًا لِسارِيَهْ
مُعتبِرًا بِمَنْ مَضَى   مِنَ القرُونِ الخالِيَهْ
خيرٌ مِنَ الساعاتِ في   فَيْءِ القُصورِ العالِيَهْ
تَعقبُها عُقوبَةٌ   تُصْلى بنارٍ حامِيَه
فهذهِ وصيَّتي   مُخْبِرَةٌ بحالِيَهْ
طُوبَى لِمَنْ يَسمَعُها   تِلْكَ لَعَمْري كافِيَهْ
فاسمَعْ لِنُصْحِ مُشْفِقٍ   يُدْعَى أبا العَتاهِيَهْ

★ ★ ★

إنّما الدُّنيا مَتاعٌ زائلٌ   فَاقْتَصِدْ فيه وَخُذْ منهُ وَدَعْ
عجبٌ لِلدّهرِ كمْ مِن أُمَمٍ   قد أبادَ الدهرُ والدهرُ جَذَعْ
يا أخَا المَيْتِ الذي شيَّعه   فَحَثا التّربَ عليهِ ورَجَعْ
ليتَ شعري ما تزوّدت مِنَ   الزَّادِ فيا هذا لِيومِ المطّلَعْ

★ ★ ★

الحِرْصُ داءٌ قد أضرَّ   بِمَنْ تَرى إلاّ قَليلا

كم مِنْ عزيزٍ قد رأيْتُ ... الحرصَ صيَّرَهُ ذَليلا

فَتَجنَّبِ الشّهواتِ وَاحْذرْ ... أن تكونَ لها فَتِيلا

فَلَرُبَّ شَهْوَةِ ساعةٍ ... قَدْ أَوْرثَتْ حُزْنًا طَويلا

★ ★ ★

حتَى مَتى يَسْتَفِزُّني الطَّمَعُ ... أليْسَ لي بالكفافِ مُتَّسَعُ

ما أفضلَ الصّبْرَ والقناعةَ ... للنّاسِ جميعًا لو أنَّهم قَنِعوا

وأخدعَ اللّيلَ والنّهارَ لأقوامٍ ... أراهم في الغيِّ قد رَتَعُوا[1]

لله درُّ الدُّنيا فقدْ لعبتْ ... قبلي بقومٍ فما ترى صَنَعوا

وكان ما قدَّموا لأنفسِهِمْ ... أَعْظَمَ نَفْعًا مِنَ الّذي وَدَعوا

★ ★ ★

وَ اعَجَبَا لِلنَّاسِ لَوْ فَكَّرُوا ... وَحَاسَبُوا أَنْفُسَهُمْ أبْصَرُوا

وَعَبَرُوا ٱلدُّنْيَا إِلَى غَيْرِهَا ... فَإِنَّمَا ٱلدُّنْيَا لَهُمْ مَعْبَرُ

أَلْخَيْرُ مِمَّا لَيْسَ يَخْفَى هُوَ ٱلْمَعْرُوفُ وَٱلشَّرُّ هُوَ ٱلْمُنْكَرُ

وَٱلْمَوْعِدُ ٱلْموتُ وَمَا بَعْدَهُ ٱلْحَشْرُ فَذَاكَ ٱلْمَوْعِدُ ٱلأَكْبَرُ

لاَ فَخْرَ إِلّا فَخْرُ أهْلِ ٱلتّقَى ... غَدًا إِذَا ضَمَّهُمُ ٱلْمَحْشَرُ

لَيَعْلَمَنَّ ٱلنَّاسُ أَنَّ ٱلتُّقَى ... وَٱلْبِرَّ كَانَا خَيْرَ مَا يُذْخَرُ

★ ★ ★

عَلَيْكُمْ سَلاَمُ ٱللهِ إِنِي مُوَدِّعُ ... وَعَيْنَايَ مِنْ مَضِّ ٱلتَّفَرُّقِ تَدْمَعُ

فَإِنْ نَحْنُ عِشْنَا يَجْمَعُ الله بَيْنَنَا ... وَإِنْ نَحْنُ مُتْنا فَٱلْقِيَامَةُ تَجْمَعُ

أَلَمْ تَرَ رَيْبَ ٱلدَّهْرِ في كُلِّ ساعَةٍ ... لَهُ عَارِضٌ فِيهِ ٱلْمَنِيَّةُ تَلْمَعُ

---

(١) رتعوا: أقاموا.

أَيَا بَانِيَ ٱلدُّنْيَا لِغَيْرِكَ تَبْتَنِي وَيَا جَامِعَ ٱلدُّنْيَا لِغَيْرِكَ تَجْمَعُ
أَرَى ٱلْمَرْءَ وَثَّابًا عَلَى كُلِّ فُرْصَةٍ وَلِلْمَرْءِ يَوْمًا لاَ مَحَالَةَ مَصْرَعُ
تَبَارَكَ مَنْ لَا يَمْلِكُ ٱلْمُلْكَ غَيْرُهُ مَتَى تَنْقَضِي حَاجَاتُ مَنْ لَيْسَ يَشْبَعُ
وَأَيُّ ٱمْرِىءٍ فِي غَايَةٍ لَيْسَ نَفْسُهُ إِلَى غَايَةٍ أُخْرَى سِوَاهَا تَطَلَّعُ

★ ★ ★

تَعَالَى ٱللهُ يَا سَلْمَ بْنَ عَمْرٍو أَذَلَّ ٱلْحِرْصُ أَعْنَاقَ ٱلرِّجَالِ
هَبِ ٱلدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوًا أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَٰلِكَ لِلزَّوَالِ
نَعَى نَفْسِي إِلَيَّ مِنَ ٱللَّيَالِي تَصَرُّفُهُنَّ حَالًا بَعْدَ حَالِ
فَمَا لِي لَسْتُ مَشْغُولًا بِنَفْسِي وَمَا لِي لَا أَخَافُ ٱلْمَوْتَ مَا لِي
أَمَا فِي ٱلسَّالِفِينَ لِي ٱعْتِبَارٌ وَمَا لأَقْوَهْ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِي
كَأَنِّي بِٱلْمَنِيَّةِ أَزْعَجَتْنِي وَنَعْشِي بَيْنَ أَرْبَعَةٍ عِجَالِ
وَخَلْفِي نِسْوَةٌ يَبْكِينَ بَعْدِي كَأَنَّ قُلُوبَهُنَّ عَلَى ٱلْمَقَالِي
وَحَقِّكَ كُلُّ ذَا يَفْنَى سَرِيعًا وَلاَ شَيْءٌ يَدُومُ مَعَ ٱللَّيَالِي

★ ★ ★

فَيَا مَنْ بَاتَ يَنْمُو بِٱلْخَطَايَا وَعَيْنُ ٱللهِ سَاهِرَةٌ تَرَاهُ
أَمَا تَخْشَى مِنَ الدَّيَّانِ طَرْداً بِجُرْمٍ دَائِمًا أَبَدًا تَرَاهُ
أَتَعْصِي ٱللهَ وَهْوَ يَرَاكَ جَهْرًا وَتَنْسَى فِي غَدٍ حَقًّا تَرَاهُ
وَتَخْلُو بِٱلْمَعَاصِي وَهْوَ دَانٍ إِلَيْكَ وَلَيْسَ تَخْشَى مِنْ لِقَاهُ
وَتُنْكِرُ فِعْلَهَا وَلَهَا شُهُودٌ بِمَكْتُوبٍ عَلَيْكَ وَقَدْ حَوَاهُ
فَيَا حُزْنَ ٱلْمُسِيءِ لِشُؤْمِ ذَنْبٍ وَبَعْدَ ٱلْحُزْنِ يَكْفِيهِ حِمَاهُ

فَيَنْدُبُ حَسْرَةً مِنْ بَعْدِ مَوْتٍ وَيَبْكِي حَيْثُ لاَ يُجْدِي بُكَاهُ

يَعَضُّ يَدَيْهِ مِنْ نَدَمٍ وَحُزْنٍ وَيَنْدُبُ حَسْرَةً مَا قَدْ عَرَاهُ

فَبَادِرْ بِٱلصَّلَاحِ وَأَنْتَ حَيٌّ لَعَلَّكَ أَنْ تَنَالَ بِهِ رِضَاهُ

★ ★ ★

الإمام الشّافعيّ

هو محمد بن إدريس بن العباس (١٥٠ هـ / ٧٦٧ م - ٢٠٤ هـ / ٨٢٠ م) أحد الأئمّة الأربعة عند أهل السنّة، وإليه نسبة الشافعيّة كافّة. ولد في غزّة بفلسطين، وتوفّي بالقاهرة. برع في الرمي، والشعر، واللغة، وأيام العرب، ثم أقبل على الفقه والحديث، وأفتى وهو ابن عشرين سنة، وكان ذكيًّا مفرطًا. له تصانيف كثيرة أشهرها كتاب «الأم» في الفقه، و«المسند»، و«أحكام القرآن»، و«السنن»، و«الرسالة». ومن ديوانه نُثبت المقتطفات الزهديّة التالية:

خَفِ اللهَ وارْجُهُ لِكُلِّ عَظِيمَةٍ ... ولا تُطِعِ النَّفْسَ اللَّجُوجَ فَتَنْدَما

وَكُنْ بَيْنَ هاتَيْنِ مِنَ الخَوْفِ والرَّجا ... وَأَبْشِرْ بِعَفْوِ اللهِ إنْ كُنْتَ مُسْلِما

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي، وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي ... جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا

تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرِنْتُهُ ... بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا

إليكَ إلَهَ الخَلْقِ أَرْفَعُ رَغْبَتِي ... وَإِنْ كنتُ يا ذا المَنِّ والجودِ مُجْرِما

فَمَا زِلْتَ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ ... تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا

فَلَولاكَ لَمْ يَصْمُدْ لإِبْلِيسَ عَابِدٌ ... فَكَيْفَ وَقَدْ أَغْوَى صَفِيَّكَ آدَمَا[1]

---

(١) الصَّفيّ: الصديق المخلص.

فَلِلَّهِ دَرُّ ٱلْعَارِفِ ٱلنَّدْبِ إِنَّهُ ... تَفِيضُ لِفَرْطِ ٱلْوَجْدِ أَجْفَانُهُ دَمَا[1]

يُقِيمُ إِذَا مَا اللَّيلُ مَدَّ ظَلَامَهُ ... عَلَى نَفْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الخَوفِ مَأْتَمَا

فَصِيحًا إِذَا مَا كَانَ فِي ذِكْرِ رَبِّهِ ... وَفِيما سِواهُ فِي ٱلْوَرَى كَانَ أَعْجَمَا[2]

وَيَذْكُرُ أَيَامًا مَضَتْ مِنْ شَبَابِهِ ... وَمَا كَانَ فِيهَا بِالجَهَالَةِ أَجْرَمَا

فَصَارَ، قَرِينَ الهَمِّ طُولَ نَهَارِهِ ... أَخَا السُّهْدِ والنَّجْوى إِذَا اللَّيْلُ أَظْلَمَا[3]

يَقولُ حَبِيبي أَنْتَ سُؤْلِي وَبُغْيَتِي ... كَفَى بِكَ لِلرَّاجِينَ سُؤْلًا وَمَغْنَمَا[4]

أَلَسْتَ الَّذي غَذَّيْتَنِي وَهَدَيْتَنِي ... وَلاَ زِلْتَ مَنَّانًا عَلَيَّ وَمُنْعِمَا

عَسَى مَنْ لَهُ الإِحْسَانُ يَغْفِر زَلَّتي ... وَيَسْتُرُ أَوْزَارِي وَمَا قَدْ تَقَدَّمَا[5]

تعاظَمَني ذَنْبِي فَأَقْبَلْتُ خاشِعًا ... وَلَوْلاَ الرِّضَى ما كُنْتُ يا ربِّ مُنْعِمَا

فَإِنْ تَعْفُ عَنِّي تَعْفُ عَنْ مُتَمَرِّدٍ ... ظَلُومٍ غَشُومٍ لا يُزايِلُ مَأْثَمَا

فَإِنْ تَنْتَقِمْ مِنِّي فَلَسْتُ بِآيِسٍ ... وَلَوْ أَدْخَلُوا نَفْسِي بِجُرْمٍ جَهَنَّمَا

فَجُرْمي عَظِيمٌ مِنْ قَدِيمٍ وحادِثٍ ... وَعَفْوُكَ يَأْتي العَبْدَ أَعْلَى وَأَجْسَمَا

حوالَيَّ فَضْلُ اللهِ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ... وَنُورٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ يَفْتَرِشُ السَّمَا

وإِنِّي لآتي الذَّنْبَ أَعْرِفُ قَدْرَهُ ... وَأَعْلَمُ أَنَّ اللهَ يَعْفُو تَرَحُّمَا

وفي القَلْبِ إِشْرَاقُ المُحِبِّ بِوَصْلِهِ ... إِذا قارَبَ البُشْرَى وجازَ إِلى الحِمَى

حَوالَيَّ إِيناسٌ مِنَ اللهِ وَحْدَهُ ... يُطالِعُني في ظُلْمَةِ القَبْرِ أَنْجُمَا

---

(١) النَّدب: السريع إلى الفضائل.

(٢) الورى: الناس. أعجم: أخرس.

(٣) السّهد: الأرق. النجوى: بثّ الأسرار الخفيّة ليلاً.

(٤) السُّؤل: ما يُسأل، البغية.

(٥) أوزاري: ذنوبي.

أَصُونُ ودادِي أَنْ يُدَنِّسَهُ الهَوَى وَأَحْفَظُ عَهْدَ الحُبِّ أَنْ يَتَثَلَّما

فَفِي يَقْظَتي شَوْقٌ وفي غَفْوَتي مُنىً تُلاحِقُ خَطْوِي نَشْوَةً وَتَرَنُّما

وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ يَسْلَمْ مِنَ الوَرَى وَمَنْ يَرْجُهُ هَيْهَاتَ أَنْ يَتَنَدَّما

★ ★ ★

أَنا إنْ عِشْتُ لَسْتُ أَعْدَمُ قُوتًا وإذا مُتُّ لَسْتُ أَعْدَمُ قَبْرا

وإذا ما قَنِعْتُ بِالقُوتِ عُمْري فلماذا أَزورُ زيدًا وَعَمْرا

★ ★ ★

رَأَيْتُ القَناعَةَ رأسَ الغِنى فَصِرْتُ بِأَذْيالِها مُتَمَسِّكْ

فلا ذا يَراني على بابِهِ ولا ذا يراني بهِ مُنْهَمِكْ

فَصِرْتُ غَنِيًّا بلا دِرْهَمٍ أَمُرُّ على النّاسِ شِبْهَ المَلِكْ

★ ★ ★

كَمْ ضاحكٍ والمنايا فوقَ هامَتِهِ لو كانَ يَعْلَمُ غيبًا ماتَ مِن كَمَدِ

مَنْ كانَ لم يُؤْتَ عِلمًا في بقاءِ غدٍ ماذا تَفَكُّرُهُ في رِزْقِ بَعْدِ غَدِ

★ ★ ★

إذا أَصْبَحْتُ عندي قُوتُ يومي فَخَلِّ الهَمَّ عَنِّي يا سعيدُ

ولا تُخْطِرْ هُمومَ غَدٍ ببالي فَإِنَّ غدًا لَهُ رِزْقٌ جَديدُ

أُسَلِّمُ إنْ أرادَ اللهُ أَمْرًا فَأَتْرُكُ ما أُريدُ لِما يُريدُ

وما لإرادتي وَجْهٌ إذا ما أرادَ اللهُ لي ما لا أُريدُ

★ ★ ★

تـدرَّعْـتُ ثَـوبًـا لِلْقَنُـوعِ حصينَـةً أَصُونُ بها عِرْضـي وأَجْعَلُهـا ذُخْـرا
ولَمْ أَحْـذَرِ الدَّهْـرَ الخَـؤُونَ فـإنَّمـا قُصاراهُ أن يرمي بيَ الموتَ والفَقْـرا
فَـأعْـدَدْتُ لِلْمَـوْتِ الإلـهَ وَعَفْـوَهُ وأَعْـدَدْتُ لِلْفَقْـرِ التجَلُّـدَ والصَّبْـرا

★ ★ ★

تَوَكَّلْتُ في رِزْقي علـى اللهِ خـالِقـي وأَيْقَنْـتُ أنَّ اللهَ لا شَـكَّ رازقـي
وما يـكُ مِـن رِزْقٍ فَلَيْسَ يفـوتُنـي ولو كانَ في قاعِ البحـارِ العـوامِـقِ
ففي أَيِّ شَيْءٍ تَذْهَبُ النفسُ حَسْـرةً وقـد قَسَّـمَ الرّحمـنُ رِزْقَ الخلائِـقِ

★ ★ ★

صالح بن عبد القدوس

هو صالح بن عبد القدوس بن عبدالله بن عبد القدوس الأزدي (٠٠٠ ـ نحو ١٦٠ هـ / نحو ٧٧٧ م) شاعر حكيم، وشعره كله أمثال وحكم وآداب. اتُهم عند المهدي العبّاسيّ بالزندقة، فقتله ببغداد. ومن أشعاره الزهديّة نقتطف ما يلي:

★ ★ ★

اللهُ أحْمُـــدُ شـــاكِـــرًا فبلاؤهُ حَسَـــنٌ جَميـــلُ

أَصْبَحْـتُ مَسْتُـورًا مُعـافـى بيـــنَ أَنْعُجِـــهِ أجـــولُ

خلْـوًا مِـنَ الإخـوانِ خـفٌّ الظّهْـر يُقْنِعُنـــي القليـــلُ

سِيّــانِ عِنْــدي ذو الغِنــى المِتْلافُ والمُثْـري البَخيـلُ

والنـــاسُ كُلُّهُـــمُ لِمَـــنْ خَفَّــتْ مَــؤونَتُــهُ خليـــلُ

★ ★ ★

وقال:

دَعْ هـذه الدُّنْيـا عـداكَ زَمـانُـه وَازْهَدْ فَعُمْـرُكَ مَـرَّ مِنْـهُ الأطْيَـبُ

ذَهَبَ الشّبـابُ فمـا لـهُ مِـنْ عَـوْدَةٍ وَأَتَى المشيـبُ فـأيـنَ مِنْـهُ المَهْـرَبُ

وَغُـرورُ دُنْيـاكَ التـي تَسْعَـى لهـا   دارٌ حقيقتُهـا مَتـاعٌ يَـذْهَـبُ
تَبًّـا لِـدارٍ لا يَـدومُ نَعيمُهـا   وَمشيُـدهـا عَمَّـا قليـلٍ يَخْـرُبُ

★ ★ ★

وقال:

بلـوْتُ أمـورَ النـاسِ سبعيـنَ حجّـةً   ولابسْتُ صرفَ الدَّهرِ في العُسْرِ واليُسْرِ
فلم أرَ بعدَ الدينِ خيـرًا مِـنَ الغِنـى   ولم أرَ بعدَ الكفـرِ شـرًّا مِـنَ الفقـرِ

★ ★ ★

أبو نُواس

هو الحسن بن هانيء (٧٦٢م/ ١٤٥ هـ - ٨١٣م/ ١٩٨ هـ) نشأ في البصرة يعبّ من العلوم بذكاء متوقّد، ويتتلمذ لبعض المجّان والخلعاء. عاش في السكر واللهو والمجون. وهو شاعر الخمرة بلا منازع. لكنَّه رغب عنها في آخر حياته، وتزهّد، وقال شعرًا كثيرًا في الزهد. وقصائده الزهديّة تبلغ العشرات، وتمتاز بمعاناة الشاعر الخوفَ والتأثّم، لأنّه كان في زهديّاته هو الذات والموضوع بخلاف أبي العتاهية الذي كان يرنو من الخارج. ويخيَّل إلينا حينًا أنّها من الشعر الصادق الذي يدنو إلى شعر الاعترافات، وإنْ كان لا يداني اعترافات الأولياء، وفيما يلي بعض قصائده الزّهديّة:

أيا مَنْ ليسَ لي مِنْهُ مُجيرُ ... بعفْوِكَ مِن عذابِكَ أَسْتجيرُ

أنا العبدُ المُقِرُّ بكلِّ ذَنْبٍ ... وأنتَ السَّيّدُ المولى الغَفورُ

فإن عذَّبْتَني فَبِسوءِ فعْلي ... وإنْ تَغْفِرْ فأنتَ بهِ جديرُ

أفرُّ إليكَ منكَ... وأيْنَ إلّا ... إليكَ يَفِرُّ مِنكَ المُسْتَجيرُ

★ ★ ★

يا بَنِي النَّقْصِ والعِبَرْ ... وبني الضَّعْفِ والخَوَرْ[1]

(١) الخَوَر: الضعف.

وبني البُعْدِ في الطِّبا ع على القُرْبِ في الصُّورْ
والشُّكولِ التي تَبا يَنُ في الطُّولِ والقِصَرْ[1]
أإحتِساءً مِنَ الحَرا مِ، وختْمًا على الصُّرَرْ؟![2]
أيْنَ مَن كانَ قبلَكُمْ مِن ذَوِي البأسِ والخَطَرْ
سائلوا عنهمُ المدا ئنَ، واستبحِثُوا الخَبَرْ
سبَقُونا إلى الرَّحيـ لِ وإنّا على الأثَرْ
مَنْ مضَى عِبْرَةٌ لنا وغدًا نحنُ مُعْتَبَرْ
إنّ للموتِ أخْذَةً تَسبِقُ اللَّمْحَ بالبصَرْ
فكأني بِكُمْ غدًا في ثيابٍ مِنَ المَدَرْ[3]
قد نُقِلْتُم مِنَ القصو رِ إلى ظُلْمَةِ الحُفَرْ
حيثُ لا تُضْرَبُ القِبا بُ عليكمْ، ولا الحُجَرْ
حيثُ لا تَظهرونَ فيـ ـها لِلَهْوِ ولا سَمَرْ
رَحِمَ اللهُ مُسْلِمًا ذكَرَ اللهَ فازْدَجَرْ
غَفَرَ اللهُ ذنْبَ مَنْ خافَ فاسْتَشْعَرَ الحَذَرْ..

★ ★ ★

يا سائلَ اللهِ فُزْتَ بالظَّفَرِ وبالنَّوالِ الهَنِيِّ لا الْكَدِرِ
فَارْغَبْ إلى اللهِ لا إلى بشَرِ منتقل في البِلَى وفي الغِيَرِ

(١) الشّكول: الأشكال. تباين: بحذف تاء المضارعة، تتباعد.
(٢) احتساء: شربًا، والهمزة: أداة استفهام. يريد أنهم يرتكبون المُحرَّمات، ولا يفعلون الحسنات، ويَضِنُّون بأموالهم شُحًّا حتى إنَّهم يجمعونها في صُرَر ويختمونها.
(٣) المَدَر: قطع الطين اليابس، والمراد الحفرة التي يدفن بها الميت.

وَارْغبْ إلى اللهِ لا إلى جسدِ ... منْتقل مِنْ صِبًا إلى كِبَر

إنّ الذي لا يُخيبُ سائلَهُ ... جَوْهرُهُ غيرُ جوْهرِ البَشَرِ

ما لكَ بالتُّرَّهاتِ مشتغلًا ... أفي يَدَيْكَ الأمانُ مِنْ سَقَرِ

★ ★ ★

أخي ما بالُ قلبكَ ليسَ يَنْقى ... كأنَّكَ لا تَظُنُّ الموتَ حَقّا

ألا يَا ابْنَ الذينَ فَنَوْا وبادُوا ... أما واللهِ ما بادوا لِتَبْقَى

وما لَكَ فَاعْلمنْ فيها مقامٌ ... إذا اسْتكملْتَ آجالًا ورِزْقا

وما لكَ غير ما قدّمْتَ زادٌ ... إذا جُعِلَتْ إلى اللّهَواتِ تَرْقى

وما أحدٌ بِزادِكَ منكَ أحظى ... وما أحدٌ بِذَنْبِكَ مِنْكَ أشْقَى

★ ★ ★

كُنْ مَعَ اللهِ يَكُنْ لَكْ ... وَاتَّقِ اللهَ لَعَلَّكْ

لا تكنْ إلاّ معدًّا ... لِلْمنايا فكأنّكْ

إنَّ لِلموتِ لَسَهمًا ... واقعًا دونَكَ أوْ بِكْ

نحن نجري في أفانينِ ... سُكُونٍ وتَحَرُّكْ

فَعَلى اللهِ توكّلْ ... وبِتَقْواهُ تَمَسَّكْ

★ ★ ★

الموتُ مِنّا قَريبٌ ... وليسَ عنّا بنازِحْ[١]

في كلِّ يومٍ نَعيٌّ ... تصيحُ منهُ الصَّوائِحْ[٢]

---

(١) النازح: البعيد.

(٢) النّعيّ: مِثل النَّعْي: خبر الموت.

تَشْجَى القلوبُ، وتبكي مُوَلْولاتُ النَّوائِحْ
حتّى مَتى أنتَ تَلْهو في غَفْلَةٍ، وتُمازِحْ؟!
والموتُ في كلِّ يومٍ في زَنْد عَيْشِكَ قادِحْ[1]
فاعْمَلْ لِيومٍ عبوسٍ من شِدَّة الهوْل كالِحْ[2]
ولا يَغُرَّنْكَ دُنْيا نعيمُها عنك نازِحْ
وبُغْضُها لكَ زَيْنٌ وحُبُّها لكَ ناضِحْ

★ ★ ★

أيا مَنْ بَيْنَ باطِيَةٍ وزِقٍّ وعُودٍ في يَدَي غانٍ يُغَنِّي[3]
إذا لم تَنْهَ نفسَكَ عنْ هواها وتُحْسِنْ صَوْنَها فإليكَ، عنّي[4]
وَمَنْ أسْوا وأقْبَحُ منْ لبيبٍ يُرَى مُتَطرِّبًا في مِثْلِ سنِّي[5]

★ ★ ★

أيَّةُ نارٍ قَدَحَ القادِحُ وأيُّ جِدٍّ بلغَ المازِحُ[6]
للهِ درُّ الشَّيْبِ مِنْ واعظٍ وناصِحٍ لو سُمِعَ الناصِحُ
يأبى الفتى إلاّ اتِّباعَ الهوى ومَنْهَجُ الحَقِّ له واضِحُ[7]
فاَسْمُ بعَيْنَيْكَ إلى نِسْوةٍ مُهورُهُنَّ العملُ الصَّالِحُ[8]

---

(١) الزَّنْد: الحديدة التي تُستنبطُ النار منها.
(٢) كالح: عابس.
(٣) الباطية: نوع من آنية الشراب. الزِّق: السّقاء. الغاني: المقيم.
(٤) إليك عني: ابتعد.
(٥) مُتطرِّبا: طروبا.
(٦) القادح: مستنبط النار من الزناد.
(٧) منهج الحق: طريقه.
(٨) اسمُ بعينيك إلى نسوة: تطلّع بهما إلى حور الجنة.

لا يَجْتَلي الحوراءَ مِنْ خِدْرِها ... إلا امرُؤٌ ميزانُهُ راجِحُ[1]
مَنِ اتَّقى اللهَ فذاكَ الَّذي ... سيق إليه المَتْجَرُ الرابِحُ
شَمِّرْ فما في الدِّينِ أُغْلُوطَةٌ ... ورُحْ لما أنتَ لهُ رائِحُ[2]

★ ★ ★

يا رَبِّ إنْ عَظُمَتْ ذُنوبي كثْرَةً ... فلقدْ علِمْتُ بأنَّ عفوكَ أعظَمُ
إنْ كانَ لا يَرْجوكَ إلاّ مُحْسِنٌ ... فَبِمَنْ يلوذُ ويَستَجيرُ المُجْرِمُ
أدعوكَ ربِّ كما أمَرْتَ تَضَرُّعًا ... فإذا ردَدْتَ يَدَي فمَنْ ذا يَرْحَمُ
ما لي إليكَ وسيلةٌ إلاّ الرّجا ... وجميلُ عفوِكَ.. ثم أنّي مسلمُ

★ ★ ★

أفْنَيْتَ عُمْرَكَ، والذُّنوبُ تزيدُ ... والكاتِبُ المُحْصي عليك شهيدُ
كم قُلْتَ لستُ بعائدٍ في سَوْءَةٍ ... ونَذَرْتَ فيها ثم صِرْتَ تعودُ
حتّى متى لا تَرْعَوي عنْ لذّةٍ ... وحسابُها يومَ الحسابِ شديدُ
وكأنّني بِكَ قدْ أتَتْكَ مَنِيَّةٌ ... لا شَكَّ أنّ سبيلَها مورُودُ

★ ★ ★

إنَّ مَعَ اليومِ ـ فاعْلَمَنَّ ـ غدًا ... فانظُرْ بما يَنْقَضي مَجيءُ غَدِهْ
ما ارْتَدَّ طَرْفُ امْرِئٍ بِلذّتِهِ ... إلاّ وشَيْءٌ يموتُ مِن جَسَدِهْ

★ ★ ★

يا نُواسِيُّ تَوَقَّرْ ... وتَجَمَّلْ، وتَصَبَّرْ

---

(١) لا يجتلي الحوْراء: لا ينظر إليها. ميزانه راجح: ميزانه مائل لأنه بالحسنات.
(٢) الأغلوطة: الكلام يُغلَط فيه ويُغالط به.

سـاءَكَ الدَّهْـرُ بشـيْءٍ ... وبمـا سـرَّكَ أكْثَـرْ

يـا كبيـرَ الذَّنْـبِ عفـوُ الـ ... لَّـهِ مِـنْ ذنبِـكَ أكْبَـرْ

أكبـرُ الأشْيـاءِ عـنْ أصْـ ... ـغـرِ عفْـوِ اللهِ أصْغَـرْ

ليـسَ للإنســانِ إلّا ... مـا قَضَـى اللهُ وقَـدَّرْ

ليسَ لِلْمخلـوقِ تَـدْبيـ ... ـرٌ بـلِ اللهُ المُـدَبِّـرْ

★ ★ ★

انْقَضَتْ شِرَّتي فعِفْتُ الملاهـي ... إذْ رمَى الشَّيْبُ مَفْرِقِي بالدَّواهـي[1]

ونهَتْني النُّهَى فَمِلْتُ إلـى العَـدْ ... لِ وأشفَقْتُ مِن مَقالـةِ نـاهِ[2]

أيُّها الغـافِلُ المُقيـمُ علـى السَّهْـ ... ـوِ، ولا عُـذْرَ في المقـامِ لسـاهِ..

لا بـأعمـالِنـا نُطِيـقُ خلاصًـا ... يـومَ تبـدو السمـاءُ فـوقَ الجِبـاه[3]

غَيـرَ أنّـي علـي الإسـاءةِ والتَّفْـ ... ـريـطِ راجٍ لحُسْـنِ عفْـوِ اللهِ[4]

★ ★ ★

دَبَّ فِـيَّ السَّقـامُ سُفْلًا وعُلْـوا ... وأرانـي أمـوتُ عُضْـوًا فعُضْـوَا

ليسَ تَمْضي مِنْ لحظـةٍ بـي إلاّ ... نَقَصَتْنـي بِمـرِّهـا فِـيَّ جُـزْوَا

ذهَبَتْ جِـدَّتي بحـاجَـةِ نفسـي ... وتطَلَّبْـتُ طـاعـةَ اللهِ نِضْـوا[5]

لهْـفَ نفسـي علـى لَيـالٍ وأيّـامٍ، تجـاوزْتُهُـنَّ لِعْبًـا ولَهْـوا

قـد أسَأْنـا كـلَّ الإسـاءَة، فـاللَّهُـمَّ صفْحًـا عنّـا، وغَفْـرًا، وعَفْـوا!

---

(١) الشِّرَّة: يريد شِرَّة الشباب أي حِدّته ونشاطه.

(٢) النُّهى: جمع نُهْيَة وهي العقل.

(٣) يقول: إن يوم القيامة هو اليوم الذي تقترب فيه السماء من الجِباه.

(٤) التفريط: التقصير.

(٥) النِّضْو: المهزول.

أبو تمّام

هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائيّ (١٨٨ هـ/٨٠٤ م - ٢٣١ هـ/٨٤٦ م) شاعر أديب وأحد أمراء البيان. ولد في حوران (سوريا)، ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم الى بغداد، فأجازه وقدّمه على شعراء عصره، فأقام في العراق. اختُلف في التفضيل بينه وبين المتنبي والبحتري. له تصانيف منها «فحول الشعراء»، و«ديوان الحماسة»، و«ديوان شعر».

★ ★ ★

أَلِلْعُمْرِ في الدُّنيا تَجِدُّ وتَعْمُرُ ... وأَنْتَ غدًا فيها تموتُ وتُقْبَرُ

تُلقِّحُ آمالًا وتَرْجُو نِتاجَها ... وَعُمْرُكَ مِمّا قد تُرَجِّيهِ أَقْصَرُ

وهذا صَباحُ اليومِ ينعاكَ ضَوؤُه ... ولَيْلَتُهُ تنعاكَ إن كُنْتَ تَشْعُرُ

تَحومُ على إدراكِ ما قَدْ كُفِيتَهُ ... وتُقْبِلُ بالآمالِ فيه وتُدْبِرُ

ورِزْقُكَ لا يعدوك إمّا مُعَجَّلٌ ... على حالِهِ يَومًا وإمّا مُؤَخَّرُ

فلا تَأْمَنِ الدُّنْيا إذا هيَ أَقْبَلَتْ ... عَليكَ فما زالَتْ تَخونُ وتُدْبِرُ

وَشَمِّرْ فقد أَبْدَى لكَ الموتُ وَجْهَهُ ... وَلَيسَ يَنالُ الفَوزَ إلّا المُشَمِّرُ

تَذَكَّرْ وفَكِّرْ في الذي أَنْتَ صائِرٌ ... إليهِ غَدًا إنْ كُنْتَ مِمَّنْ يُفَكِّرُ

فلا بُدَّ يومًا أنْ تصيرَ لِحُفْرَةٍ ... بأَثْنائِها تُطْوى إلى يَومِ تُنْشَرُ[1]

(١) تُنشَر: تُحيى من جديد.

تَطَهَّرْ وأَلْحِقْ ذَنْبَكَ اليومَ تَوْبَةً   لَعَلَّكَ مِنْهُ إنْ تطهَّرْتَ تَطْهُرُ
فهذي اللَّيالي مُؤْذِناتُكَ بالْبِلى   تَروحُ وأيّامٌ كذاكَ تُبَكِّرُ
وأَخْلِصْ لِدينِ اللهِ صَدْرًا ونِيَّةً   فإنَّ الذي تُخْفيهِ يَوْمًا سَيَظْهَرُ
وقَدْ يَسْتُرُ الإنْسانُ باللَّفْظِ فِعْلَهُ   فيظهرُ عَنْهُ الطَّرْفُ ما كانَ يَسْتُرُ
تأَمَّلْ وفَكِّرْ في الذي أنْتَ صائرٌ   إليهِ غَدًا إنْ كنتَ مِمَّنْ يُفَكِّرُ

* * *

البرعيّ

هو عبد الرحيم بن أحمد بن علي البُرَعي اليمانيّ (٠٠٠ - ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠ م). شاعر زاهد متصوِّف من سكان «النيابتين» في اليمن. ونسبته إلى «بُرَع»، وهو جبل بتهامة. أفتى ودرّس. له «ديوان شعر» أكثره في المدائح النبويّة. وفيما يلي مقتطفات من زهديّاته.

★ ★ ★

أَحْبَابَ قَلْبِي مَضَى زَمَانِي ... وَنَغَّصَتْ عَيْشِيَ ٱلْهُمُومُ

وَفَرَّقَ ٱلْمَوْتُ أَهْلَ عَصْرِي ... فَلَا صَدِيقٌ وَلَا حَمِيمُ

وَأَخْلَفَ ٱلدَّهْرُ خَلْفَ سَوْءٍ ... كَأَنَّنِي بَيْنَهُمْ يَتِيمُ

وَٱلْآنَ حَانَ ٱلرَّحِيلُ مِنِّي ... وَهٰذِهِ ٱلدَّارُ لَا تَدُومُ

وَمَا تَزَوَّدتُ غَيْرَ ذَنْبٍ ... عَذَابُهُ دَائِمٌ أَلِيمُ

يُصَرِّحُ ٱلْوَعْظُ بِي وَقَلْبِي ... كَأَنَّهُ صَخْرَةٌ صَمِيمُ

أُبَارِزُ ٱللهَ بِٱلْخَطَايَا ... وَٱللهُ سُبْحَانَهُ حَلِيمُ

فَكَمْ خَلَعْتُ ٱلْعِذَارَ جَهْلًا ... وَلُمْتُ فِي ٱلْغَيِّ مَنْ يَلُومُ

وَكَمْ تَعَامَيْتُ عَنْ رَشَادِي ... وَمَنْهَجُ ٱلْحَقِّ مُسْتَقِيمُ

لَا أَنْتَهِي عَنْ قَبِيحِ فِعْلِي وَلَا أُصَلِّي وَلَا أَصُومُ
عَصَيْتُ طِفْلًا وَصِرْتُ أَعْصَى وَٱلشَّيْبُ فِي مَفْرِقِي يَحُومُ
شَيْبٌ وَعَيْبٌ وَحَمْلُ ذَنْبٍ وَٱلذَّنْبُ بَعْدَ ٱلْمَشِيبِ شُومُ
يَا جَامِعَ ٱلْمَالِ مِنْ حَرَامٍ سَيَقْتَضِي مَالَكَ ٱلْغَرِيمُ
وَتَقْتَضِي وِزْرَهُ وَتُلْقَى فِي ٱلنَّارِ يَغْلِي بِهَا ٱلْحَمِيمُ
وَكَيْفَ يَهْنِيكَ صَفْوُ عَيْشٍ خِتَامُهُ عَلْقَمٌ عَقِيمُ
يَا وَاسِعَ ٱللُّطْفِ جُدْ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ مِنْكَ يَا كَرِيمُ
إِنْ قَالَ عَبْدُ ٱلرَّحِيمِ ذَنْبِي فَقُلْ أَنَا ٱلْمُشْفِقُ ٱلرَّحِيمُ
وَإِنْ شَكَا مِنْ خُصُومِ سَوْءٍ فَحُلَّ مَا تَعْقِدُ ٱلْخُصُومُ
وَسَامِحِ ٱلْكُلَّ فِي ذُنُوبٍ أَنْتَ بِهَا سَيِّدِي عَلِيمُ

★ ★ ★

وقال في الإغراء بالتوبة:

يَا مُحْسِنًا بِٱلزَّمَانِ ظَنًّا لَمْ تَدْرِ مَا يَفْعَلُ ٱلزَّمَانُ
لَا تَتْبَعِ ٱلنَّفْسَ فِي هَوَاهَا إِنَّ ٱتِّبَاعَ ٱلْهَوَى هَوَانُ
وَا خَجْلَتِي مِنْ عِتَابِ رَبِّي إِنْ قَالَ أَسْرَفْتَ يَا فُلَانُ
إِلَى مَتَى أَنْتَ فِي ٱلْمَعَاصِي تَسِيرُ مُرْخًى لَكَ ٱلْعِنَانُ
لَوْ خَوَّفَتْكَ ٱلْجحِيمُ بَطْشِي لَشَوَّقَتْ قَلْبَكَ ٱلْجِنَانُ
أَنْتَ شُجَاعٌ عَلَى ٱلْمَعَاصِي وَأَنْتَ عَنْ طَاعَتِي جَبَانُ
عِنْدِي لَكَ ٱلصُّلْحُ وَهْوَ بِرِّي وَعِنْدَكَ ٱلسَّيْفُ وَٱلسِّنَانُ
فَٱسْتَحْيِ مِنْ شَيْبَةٍ تَرَاهَا فِي ٱلنَّارِ مَسْجُونَةً تُهَانُ

أيَّ أوَانٍ تَتُـــوبُ فِيـــهِ   هَلْ بَعْدَ قَطْعِ ٱلـرَّجَـا أَوَانُ

يَـا سَيِّـدِي هٰـذِهِ عُيُـوبِـي   وَأَنْتَ فِي ٱلْخَطْـبِ مُسْتَعَـانُ

يَا مَنْ لَهُ فِـي ٱلْعُصَـاةِ شَـأْنٌ   وَشَـأْنُـهُ ٱلْعَطْـفُ وَٱلْحَنَـانُ

يَـا مَـنْ مَلَا بِـرُّهُ ٱلنَّـوَاحِـي   لَـمْ يَخْـلُ مِـنْ بِـرِّهِ مَكَـانُ

عَفْـوًا فَـإِنِّـي رَهِيـنُ ذَنْـبٍ   حَاشَـاكَ أَنْ يَغْلَـقَ ٱلـرِّهَـانُ

* * *

ابن المُقْري

هو إسماعيل بن أبي بكر بن عبدالله بن إبراهيم (٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م - ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م) ولد باليمن. تولّى التدريس بتعز وزبيد، وولي إمرة بعض البلاد في دولة الأشرف، ومات بزبيد. له تصانيف كثيرة، منها «عنوان الشرف الوافي في الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافي»، و«ديوان شعر»، و«الإرشاد» في فروع الشافعيّة. وفيما يلي قصيدة له في التوبة.

إِلَى كَمْ تَمَادَى فِي غُرُورٍ وَغَفْلَةِ ... وَكَمْ هٰكَذَا نَوْمٌ إِلَى غَيْرِ يَقْظَةِ

لَقَدْ ضَاعَ عُمْرٌ سَاعَةٌ مِنْهُ تُشْتَرَى ... بِمِلْءِ ٱلسَّمَا وَٱلْأَرْضِ أَيَّةَ ضَيْعَةِ

أَتَرْضَى مِنَ ٱلْعَيْشِ ٱلرَّغِيدِ وَعِيشَةٍ ... مَعَ ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَى بِعَيْشِ ٱلْبَهِيمَةِ

فَيَا دُرَّةً بَيْنَ ٱلْمَزَابِلِ أُلْقِيَتْ ... وَجَوْهَرَةً بِيعَتْ بِأَبْخَسِ قِيمَةِ

أَفَانٍ بِبَاقٍ تَشْتَرِيهِ سَفَاهَةً ... وَسُخْطًا بِرِضْوَانٍ وَنَارًا بِجَنَّةِ

أَأَنْتَ صَدِيقٌ أَمْ عَدُوٌّ لِنَفْسِهِ ... فَإِنَّكَ تَرْمِيهَا بِكُلِّ مُصِيبَةِ

وَلَوْ فَعَلَ ٱلْأَعْدَا بِنَفْسِكَ بَعْضَ مَا ... فَعَلْتَ لَمَسَّتْهُمْ لَهَا بَعْضُ رَحْمَةِ

لَقَدْ بِعْتَهَا هُونًا عَلَيْكَ رَخِيصَةً ... وَكَانَتْ بِهٰذا مِنْكَ غَيْرَ حَقِيقَةِ

كَلِفْتَ بِهَا دُنْيَا كَثِيرٌ غُرُورُهَا ... تُقَابِلُنَا فِي نُصْحِهَا بِٱلْخَدِيعَةِ

عَلَيْكَ بِمَا يُجْدِي عَلَيْكَ مِنَ ٱلتُّقَى فَإِنَّكَ فِي سَهْوٍ عَظِيمٍ وَغَفْلَةِ

تُصَلِّي بِلَا قَلْبٍ صَلَاةً بِمِثْلِهَا يَصِيرُ ٱلْفَتَى مُسْتَوْجِبًا لِلْعُقُوبَةِ

تُخَاطِبُهُ إِيَّاكَ نَعْبُدُ مُقْبِلًا عَلَى غَيْرِهِ فِيهَا لِغَيْرِ ضَرُورَةِ

وَلَوْ رَدَّ مَنْ نَاجَاكَ لِلْغَيْرِ طَرْفَهُ تَمَيَّزْتَ مِنْ غَيْظٍ عَلَيْهِ وَغَيْرَةِ

فَوَيْلَكَ تَدْرِي مَنْ تُنَاجِيهِ مُعْرِضًا وَبَيْنَ يَدَيْ مَنْ تَنْحَنِي غَيْرَ مُخْبِتِ

تَقُولُ مَعَ ٱلْعِصْيَانِ رَبِّيَ غَافِرٌ صَدَقْتَ وَلَكِنْ غَافِرٌ بِٱلْمَشِيئَةِ

وَرَبُّكَ رَزَّاقٌ كَمَا هُوَ غَافِرٌ فَلِمْ لَمْ تُصَدِّقْ فِيهِمَا بِٱلسَّوِيَّةِ

فَكَيْفَ تُرَجِّي ٱلْعَفْوَ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ وَلَسْتَ تُرَجِّي ٱلرِّزْقَ إِلَّا بِحِيلَةِ

وَهَا هُوَ بِٱلْأَرْزَاقِ كَفَّلَ نَفْسَهُ وَلَم يَتَكَفَّلْ لِلْأَنَامِ بِجَنَّةِ

وَمَا زِلْتَ تَسْعَى فِي ٱلَّذِي قَدْ كُفِيتَهُ وَتُهْمِلُ مَا كُلِّفْتَهُ مِنْ وَظِيفَةِ

تُسِيءُ بِهِ ظَنًّا وَتُحْسِنُ تَارَةً عَلَى حَسْبِ مَا يَقْضِي ٱلْهَوَى بِٱلْقَضِيَّةِ

* * *

البُهلول

هو أحمد بن حسين بن أحمد بن محمد (٠٠٠ ـ ١١١٣هـ/١٧٠١م) متصوِّف فاضل من أهل طرابلس الغرب. رحل إلى مصر، ولقي علماءها، وعاد إلى بلده. له «درّة العقائد» منظومة، و«المعينة» منظومة في فقه الحنفيّة، و«ديوان شعر» صغير مرتَّب على الحروف. وفيما يلي مقتطفات من قصائده الزهديّة:

★ ★ ★

دَعِ الحِرْصَ على الدُّنيا ... وفي العَيْشِ فَلا تَطْمَعْ

ولا تَجمعْ مِنَ المالِ ... فلا تَدْري لِمَنْ تَجْمَعْ

فإنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ ... وسُوءُ الظَّنِّ لا يَنْفَعْ

فَقيرٌ كلُّ ذي حِرْصٍ ... غَنِيٌّ كلُّ مَنْ يَقْنَعْ

★ ★ ★

وقال:

وَهَبْ أنْ قدْ مَلَكْتَ الأَرْضَ طُرًّا ... ودانَ لكَ البلادُ فكانَ ماذا

أَلَيْسَ غدًا مصيرُكَ جَوْفَ تُرْبٍ ... ويَحْثُو التُّرْبَ هذا ثُمَّ هذا؟

★ ★ ★

وقال:

يا مَنْ تمتَّعَ بالدُّنْيا وزِيْنَتِها ... ولا تَنامُ عنِ اللَّذّاتِ عَيْناهُ

شَغَلْتَ نفسَكَ في ما لسْتَ تَذْكُرُه ... تقولُ للهِ ماذا حينَ تلقاهُ؟

★ ★ ★

الحسن بن الهَبَل

هو حسن بن علي بن جابر الهَبَل اليمني (١٠٤٨هـ/١٦٣٨م - ١٠٧٩هـ/١٦٦٨م)، شاعر زيدي عنيف، في شعره جودة ورقّة. من أهل صنعاء ولادة ووفاة. أصله من قرية «بني الهبل»، وهي هجرة من هجر «خولان». وفيما يلي بعض المقتطفات من شعره الزهديّ:

أينَ استَقَرَّ السّفرُ الأوّلُ ... عمّا قريبٍ بهِمْ ننزلُ

مَرُّوا سراعاً نحوَ دارِ الْبَقا ... ونحنُ في آثارِهِم نرحلُ

ما هذِهِ الدُّنيا لنا منزلاً ... وإنّما الآخرةُ المنزلُ

قد حذّرتْنا مِن تصاريفها ... لوْ أنّنا نسمعُ أو نعقل

يُطيلُ فيها المرءُ آمالَهُ ... والموتُ مِن دونِ الذي يأمل

يحلو له ما مرَّ مِن عيشِها ... ودونَه لو عقلَ الحنظِلُ

أَلْهَتْهُ عن طاعةِ خلاّقه ... واللهُ لا يلهو ولا يغفل

يا صاحِ ما لذّةُ العيشِ بها ... والموتُ ما تدري متى ينزل

يدعو ليَ الأحبابُ مِن بينِنا ... يُجيبُه الأوّلُ فالأوّل

يا جاهلاً يجهدُ في كسبِها ... أغرّكَ المشربُ والمأكل

ويـا اخـا الحـرصِ علـى جمعِهـا مهلاً فَعَنْهـا فـي غـدٍ تُسـأل
لا تتعبَـنْ فيهـا ولا تـأسفَـنْ لِمـا مضـى فـالأمـرُ مستقبـل
مـا قـولُنـا بيـنَ يـديْ حـاكـمٍ يعـدلُ فـي الحكـمِ ولا يعـزل
مـا قـولُنـا للهِ فـي مـوقـفٍ يخـرسُ فيـه المِصْقَـعُ المِقْـوَل
وإنْ سُئِلْنـا فيـه عـن كـلِّ مـا نقـولُ فـي الدنيـا ومـا نفعـل
مـا الفـوزُ لِلعـالـمِ فـي علمِـه وإنّمـا الفـوزُ لِمَـنْ يَعمـلُ

★ ★ ★

رويدك من كسب الذنوب

وله أيضاً:

رُوَيْدَكَ مِن كسبِ الذّنوبِ فأنـتَ لا تطيقُ على نـارِ الجحيـمِ ولا تَقْـوى
أترضى بأن تَلْقى المهيمـنَ فـي غـدٍ وأنتَ بِلا علـمٍ لَـدَيْـكَ ولا تقـوى

★ ★ ★

محمود الورّاق

هو محمود بن حسن الوراق (٠٠٠ ـ نحو ٢٢٥ هـ / نحو ٨٤٠ م) شاعر، أكثر شعره في المواعظ والحكم، روى عنه ابن أبي الدنيا. وفي «الكامل» للمبرّد نتف من شعره، وهو صاحب البيت المشهور:

«إذا كانَ وَجْهُ العُذْرِ ليس بِبَيِّنٍ   فإنّ اطّراحَ العُذْرِ خَيْرٌ مِنَ العُذْرِ»

وفيما يلي بعض المقطوعات من شعره في الزهد:

وفي غنى النفس الغنى الأكبر

مَنْ كانَ ذا مالٍ كثيرٍ وَلَمْ   يَقْنَعْ فذاكَ الموسرُ المعسِرُ

وكلُّ مَنْ كان قنوعاً وإن   كانَ مُقِلاً فَهُوَ المكثر

★ ★ ★

هي الدنيا

هِيَ الدُّنْيا فَلا يَغْرُرْكَ مِنْها   مخايِلُ تستفِزُّ ذوي الْعقولِ

أقـــلُّ قليلِهـــا يَكْفيـــكَ مِنهـــا ولكـــنْ ليس تصنـعُ بـــالقليـــلِ

تشيـــدُ بهـــا وتبنـــي كـــلَّ يـــومٍ وأنـــتَ علـــى التّجهُّـــزِ والرّحيـــلِ

★ ★ ★

كأنها لا ترى ما يصنع القدر

لا ينفـعُ الجِـدُّ والتَّشميـرُ والحـذرُ خُـطَّ الكتـابُ فلا وِرْدٌ ولا صَـدَرُ

تستعجـلُ النّفسُ آمـــالاً لتبلغهـــا كـأنَّهـا لا تـرى مـا يصنعُ القـدر

★ ★ ★

كذاك انتقال الدول

بكيْـــتُ لِقُـــرْبِ الأجَـــلْ وبعـــد فـــواتِ الأمَـــلْ

وواقِـــد شيـــبٍ طَـــرا بعِقـــبِ شبـــابٍ رحـــل

شبـــابٌ كـــأنْ لـــم يكـــنْ وشَيـــبٌ كـــأنْ لـــم يـــزل

طـــواكَ بشيـــرُ البقـــا وجـــاء نـــذيـــرٌ الأجـــل

طـــوى صـــاحـــبٌ صـــاحبـــاً كـــذاكَ انْتقـــالُ الدُّوَل

★ ★ ★

يا ناظراً

يـا ناظِـرًا يـرنـو بِعينَـيْ راقـدِ ومشـاهـدًا للأمـرِ غيـرَ مشـاهِـدِ

منّيْـتَ نفسَـكَ ضِلّـةً وأبحْتهـا طـرقَ الرّجـاءِ وهـنَّ غيـرُ قـواصـد

تصلُ الذّنوبَ إلى الذنوبِ وتـرتجي دركَ الجنـانِ بهـا وفـوزَ العـابـد

ونسيـــتَ أنَّ اللهَ أخـــرجَ آدمـــاً منهـا إلـى الدنيـا بـذنـبٍ واحـدِ

★ ★ ★

أليس عجيباً

أَلَيْسَ عجيبًا بأنَّ الفتى　　　يُصابُ بِبعضِ الّذي في يديْهِ

فَمِنْ بيْنِ باكٍ لهُ موجعٍ　　　وبينَ مُعَزٍّ مُغِذٍّ إليه

ويسلبُه الشَّيْبُ شرْخَ الشبابِ　　　فليسَ يُعزِّيهِ خلقٌ عليه

* * *

ابن عبد ربّه

هو أحمد بن محمد بن عبد ربّه (٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م - ٣٢٨ هـ/ ٩٤٠ م) الأديب، الإمام، صاحب العقد الفريد. من أهل قرطبة. كان جدّه الأعلى سالم مولى لهشام بن عبد الرحمن بن معاوية. وكان ابن عبد ربّه شاعراً مذكوراً، فغلب عليه الاشتغال في أخبار الأدب وجمعها. له شعر كثير منه ما سمّاه «الممحّصات»، وهي قصائد ومقاطع في المواعظ والزهد، نقض بها ما قاله في صباه من الغزل والنسيب. وكانت له في عصره شهرة ذائعة. وكتابه «العقد الفريد» من أشهر كتب الأدب. وله أرجوزة تاريخيّة ذكر فيها الخلفاء، وجعل معاوية رابعهم، ولم يذكر علياً (رض) فيهم. وفيما يلي مقتطفات من زهديّاته:

مَنْ لي إذا جُدْتُ بينَ الأهلِ والولَدِ ... وكان مِنّي نحو المَوتِ قيدُ يدِ

والدّمعُ يهملُ والأنفاسُ صاعدةٌ ... فالدمعُ في صَبَبٍ والنفسُ في صعُدِ

ذاك القضاءُ الذي لا شيء يَصرِفُهُ ... حتى يفرِّقَ بينَ الرّوحِ والجَسدِ

* * *

لا بد لله من إنجاز ما وعدا

بادِرْ إلى التَّوْبَةِ الخلصاءِ مجتهدا ... والموتُ وَيْحَكَ لم يمددْ إليكَ يدا

وَارْقُبْ مِنَ اللهِ وعداً ليسَ مُخْلِفُهُ		لا بدَّ للهِ مِن إنجازِ ما وَعَدا

★ ★ ★

إذا اخضر منها جانب جفّ جانب

ألا إنّما الدنيا نضارةُ أَيْكَةٍ		إذا اخْضَرَّ منها جانبٌ جَفَّ جانبُ
هي الدّارُ ما الآمالُ إلاّ فجائعٌ		عليها ولا اللّذّاتُ إلاّ مصائب
فلا تكتحِلْ عيناكَ فيها بِعَبْرَةٍ		على ذاهبٍ منها فإنّكَ ذاهب

★ ★ ★

فإن الحزن عاقبة السرور

أتلهو بينَ باطيةٍ وزيرٍ[1]		وأنتَ مِنَ الهلاكِ على شَفيرِ
فيا مَنْ غرّهُ أملٌ طويلٌ		يُؤَدِّيهِ إلى أجلٍ قصير
أَتَفْرحُ والمنيّةُ كلَّ يومٍ		تُريكَ مكانَ قبرِكَ في القبورِ
هي الدنيا فإنْ سَرَّتْكَ يوماً		فإنَّ الحزنَ عاقبةُ السّرورِ
ستسلب كلَّ ما جَمَّعْتَ منها		كعاريةٍ تُرَدُّ الى المُعير
وتعتاضُ اليقينَ مِنَ التّظَنّي		ودار الحقّ مِن دارِ الغرور

★ ★ ★

---

(١) الباطية: وعاء الخمر. والزير: الدقيق من أوتار الطرب كالعود ونحوه.

طويت زماني برهة وطواني

كِلانِي لِما بي عاذِلَيَّ كَفاني طويْتُ زماني برهةً وطواني

بليتُ وأبليْتُ اللّيالَي مُكْرَهاً وَصَرْفانِ لِلأيّامِ مُعْتَوِراني

وما ليَ لا أبْلى لِسبعينَ حجَّةً وعشرٍ أتَتْ مِن بعدِها سَنَتان

وإنّي بِعونِ اللهِ راجٍ لِفضلِهِ ولي مِن ضمانِ اللهِ خيرُ ضمان

ولستُ أُبالي مِن تباريحِ علّتي إذا كانَ عقلي باقياً ولِساني

* * *

يا ربّ غفرانك

يا وَيْلَنا مِن موقفٍ ما بهِ أخوفُ مِنْ أنْ يعدلَ الحاكمُ

أُبارزُ اللهَ بِعصيانِه وليسَ لي من دونِه راحمُ

يا ربِّ غُفْرانَكَ عن مذنبٍ أسرفَ إلاّ أنّه نادمُ

* * *

ابن جبير

هو محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي (٥٤٠ ـ ٦١٤ هـ / ١١٤٥ ـ ١٢١٧ م)، أديب بارع، وشاعر رقيق؛ أولع بالترحّل والتنقّل، فزار المشرق ثلاث مرّات، وفي إحداها ألف كتابه «رحلة ابن جبير»؛ ومات بالإسكندريّة في رحلته الثالثة. ويقال إنّه لم يصنّف كتاب «رحلته»، وإنّما قيّد معاني ما تضمّنته فتولّى ترتيبها بعض الآخذين عنه. من كتبه «نظم الجمان في التشكّي من إخوان الزمان» وهو ديوان شعره على قدر ديوان أبي تمام. وفيما يلي بعضٌ من شعره الزهديّ:

خَلَعْتَ العذارَ بِشَيْبِ العذارِ ... فما يُقبلُ اليومَ منكَ اعتذارْ

وقالوا المشيبُ وقارُ الفتى ... وهذا المشيبُ فأينَ الوقار

جلا صبحُه عنكَ ليلَ الشّبابِ ... فشمسُكَ مُؤْذِنَةٌ بِاصْفِرار

أراكَ صحبْتَ حياةَ الغرورِ ... وتسحبُ جهلاً ذيولَ اغْترار

ألستَ ترى كدراً صفوَها ... ونجمكَ قد مالَ يبغي انْكدار

وكيفَ تنامُ على غِرّةٍ ... وسيفُ المنيّةِ ماضي الغِرار

فلو كنتَ تحذرُ صرفَ الرّدى ... إذاً لَنَفى النّومَ عنكَ الحِذار

عبرتَ مراحلَ عمرِ الأشدّ ... ولستُ أرى لكَ فيها اعتبار

وجرتَ بها عن طريقِ الهدى ... صلاةً وتعدو على أنْ تُجار

أتـاكَ الرّحيـلُ فشمِّـرْ لـهُ فـإمّـا إلـى جَنَّـةٍ أو لِنـار
وكيف تقرُّ بِدنياكَ عيناً ولم تدرِ أينَ يكونُ القرار

* * *

وما الدنيا لساكنها بدار

أراكَ مِنَ الحياةِ على اغترارِ ومالكَ بالإنابةِ مِن بدارِ[1]
وتطمعُ في البقاءِ وكيفَ تبقى وما الدّنيا لِساكِنها بِدارِ

* * *

وما يرجى لتوبته قبول

يُنيلُ المرءَ تبصرةٌ وذكرى إذا ما ابيَضَّ فَوْداه وشابا
وما يُرجى لِتوبتهِ قبولٌ إذا مزجَ الرّياءَ بها وتابا

* * *

قَالَ ٱبْنُ جُبَيْرٍ ٱلْكِنَانِيُّ أَحَدُ ٱلرحَالَة إِلَى ٱلْمَشْرِقِ :

عَجِبْتُ لِلْمَرْءِ فِي دُنْيَاهُ تُطْمِعُهُ فِي ٱلْعَيْشِ وَٱلْأَجَلُ ٱلْمَحْتُومُ يَقْطَعُهُ
يُمْسِي وَيُصْبِحُ فِي عَشْوَاءَ يَخْبِطُهَا أَعْمَى ٱلْبَصِيرَةِ وَٱلْآمَالُ تَخْدَعُهُ
يَغْتَرُّ بِٱلدَّهْرِ مَسْرُورًا بِصُحْبَتِهِ وَقَدْ تَيَقَّنَ أَنَّ ٱلدَّهْرَ يَصْرَعُهُ
وَيَجْمَعُ ٱلْمَالَ حِرْصًا لَا يُفَارِقُهُ وَقَدْ دَرَى أَنَّهُ لِلْغَيْرِ يَجْمَعُهُ
تَرَاهُ يُشْفِقُ مِنْ تَضْيِيعِ دِرْهَمِهِ وَلَيْسَ يُشْفِقُ مِنْ دِينٍ يُضَيِّعُهُ
وَأَسْوَأُ ٱلنَّاسِ تَدْبِيرًا لِعَاقِبَةٍ مَنْ أَنْفَقَ ٱلْعُمْرَ فِي مَا لَيْسَ يَنْفَعُهُ

* * *

(١) البدار : السرعة.

ابن المبارك

هو عبدالله بن المبارك (١١٨ - ١٨١ هـ/ ٧٣٦ - ٧٩٧ م)، الحافظ، شيخ الإسلام، المجاهد التاجر، صاحب التصانيف والرحلات. أفنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً. جمع الحديث والفقه والعربيّة، وأيام الناس والشجاعة والسخاء. كان من سكان خراسان، ومات بهيت (على الفرات) منصرفاً من غزو الروم. له كتاب في «الجهاد».

بُغْضُ الحياةِ وخوْفُ اللهِ أَخْرجني ... وبيعُ نفسي بما ليستْ له ثمنا

إنّي وزنْتُ الذي يبقى لِيعدِلَه ... ما ليسَ يبقى فلا واللهِ ما اتَّزَنا

* * *

فاستغن بالدّين عن دنيا الملوك

أرى أُناساً بِأَدْنى الدّينِ قد قنِعوا ... ولا أراهمْ رَضُوا بِالعيشِ بالدُّونِ

فَاسْتَغْنِ بالدّينِ عن دُنْيا الملوكِ كما ... اسْتَغْنى الملوكُ بِدُنْيَاهُمْ عَنِ الدّينِ

* * *

يحصده الموت كلما طلعا

يا طالبَ العلمِ بادرِ الْوَرَعا ... وهاجرِ النَّوْمَ وَاهْجُرِ الشَّبَعا

يـا أيُّهـا النّـاسُ أنتُـم عُشُـب		يحصـدُهُ المـوتُ كُلَّمـا طلعـا

* * *

فلم يبقَ للأيام كهل ولا فتى

ألا قِفْ بِدارِ المترفيـن وقُـلْ لهـمْ		ألا أيـنَ أربـابُ المـدائـنِ والْقُـرى

وأيـنَ الملـوكُ النّـاعمـون بغبطـةٍ		ومَنْ عانقَ الْبِيضَ الرَّعابيبَ كَالدُّمـى

فلـو نطَقـتْ دارٌ لَقـالَـتْ ديـارُهُـمْ		لكَ الخيـرُ صـاروا لِلتُّـرابِ ولِلْبِلـى

وأفنـاهُـمُ كَـرُّ النّهـارِ وليلـه		فلـم يبـقَ لِلأيّـامِ كهـلٌ ولا فتـى

* * *

فطوبى لعبد شغله بك دائماً

وكـلُّ اجْتهـادٍ فـي سـواكَ مضيَّـعٌ		وكـلُّ كلامٍ لا بِـذكـرِكَ آفـاتُ

وكـلُّ اشْتغـالٍ لا بِحُبِّكَ بـاطـلٌ		وكـلُّ سمـاعٍ لا لِقـولِـكَ زلاّت

وكـلُّ اجتمـاعٍ لا إليـكَ ضلالـةٌ		وجـدٌّ وسعـيٌ لا إليـكَ بطـالات

وكـلُّ وقـوفٍ لا لِبـابِـكَ خيبـةٌ		وكـلُّ عكـوف لا إليـكَ جنـايـات

وكـلّ رجـاءٍ دونَ فضلـكَ آيسٌ		وكلُّ حديـثٍ عـن سـواكَ خطيئـات

وأنتَ حـراءُ الحـبِّ والغيـرُ بـاطـلٌ		فطُـوبـى لِعبـدٍ نـالـه منـكَ أوقـات

فيا ويلَ قلبٍ لم تكـنْ فيـه ساكنـاً		ويـا فـوزَ قلـبٍ فيـه منـكَ مـودّات

فطـوبـى لعبـدٍ شغلُـه بـكَ دائمـاً		كحـالِ مُحِـبٍّ أدركتْـهُ العنـايـات

وسحقاً لِمطرودٍ عـنِ البـابِ مُبْعَـدًا وليس لــه إلاّ التّشــاغــلُ همّــات
على نفسِهِ فَلْيَبْكِ مَـنْ فـاتـه الهـدى وليس لــه عــزمٌ إليــكَ ونيّــات

★ ★ ★

ما بـال دينـكَ تـرضـى أنْ تُـدَنِّسَـهُ وثوبكَ الدّهـرَ مغسـولٌ مِـنَ الدَّنَسِ
ترجو النّجـاةَ ولـم تسلـكْ طـريقَتَهـا إنَّ السّفينـةَ لا تجـري علـى اليبسِ

★ ★ ★

ابن يَسِير

هو محمد بن يسير البصري (٠٠٠ ـ نحو ٢١٠ هـ / نحو ٨٢٥ م) شاعر من أهل البصرة. كان مولى لبني أسد، أو بني رياش. قال ابن قتيبة: كان في عصر أبي نواس، وعمّر بعده حيناً، وأورد مختارات من شعره، وهو صاحب البيت المشهور:

«أخْلِقْ بذِي الصَّبْرِ أنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ ... ومُدْمِنِ القَرْعِ للأبواب أن يَلِجا»

وفيما يلي بعض من مختاراته الزهديّة:

أيُّ صَفْوٍ إلاّ إلى تكديرِ ... ونعيمٍ إلاّ إلى تغييرِ
وسرورٍ ولذّةٍ وحبورٍ ... ليسَ رهناً لنا بيومٍ عسيرِ
عَجَبًا لي ومِنْ رضائي بِدُنْيا ... أنا فيها على شَفا تغريرِ
عالمٌ لا أشكُّ أنّي إلى اللهِ ... إذا متُّ أو عذابِ السّعيرِ
ثُمَّ ألهو ولسْتُ أدري إلى ... بعدَه يصيرُ مصيري
أيُّ يومٍ عليَّ أفْظعُ مِن يومٍ ... بهِ تُبرزُ النُّعاةُ سريري
كلّما مُرَّ بي على أهلِ نادٍ ... كنتُ حيناً بِهِمْ كثيرَ المرور

قِيلَ مَن ذا على سريرِ المنايا قيلَ هذا محمّدُ بنُ يسيرِ

* * *

ويل لمن لم يرحم الله

وَيْلٌ لِمَنْ لَمْ يَرْحمِ الله وَمَنْ تكونُ النارُ مَثْواهُ

يا حسرتي في كلِ يومٍ مضى يذكرُني الموتُ وأنساه

مَنْ طال في الدنيا بهِ عمرُهُ وعاشَ فالْموتُ قُصاراه

كأنَّهُ قد قِيلَ في مجلسٍ قد كنتُ آتيهِ وأغشاه

وسارعَ الْيُسري إلى ربّهِ يرحمُنا اللهُ وإيّاهُ

* * *

متفرّقات زهديّة

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ ٱلْحَسَنِ ٱلْحِمْيَرِيُّ مِنْ قَصِيدَةٍ:

فُـؤَادٌ بِـأَيْـدِي ٱلنَّـائِبَـاتِ مُصَـابُ ... وَجَفْنٌ لِفَيْضِ ٱلدَّمْـعِ فِيـهِ مُصَـابُ

تَنَـاءَتْ دِيَـارٌ قَـدْ أَلِفْـتُ وَجِيـرَةٌ ... فَهَلْ لِي إِلَى عَهْدِ ٱلْـوِصَـالِ إِيَـابُ

وَفَارَقْتُ أَوْطَانِي وَلَـمْ أَبْلُـغِ ٱلْمُنَـى ... وَدُونَ مُـرَادِي أَبْحُـرٌ وَهِضَـابُ

مَضَى زَمَنِي وَٱلشَّيْبُ حَـلَّ بِمَفْـرِقِـي ... وَأَبْعَـدُ شَـيْءٍ أَنْ يُـرَدَّ شَبَـابُ

إِذَا مَرَّ عُمْـرُ ٱلْمَـرْءِ لَيْسَ بِـرَاجِعٍ ... وَإِنْ حَلَّ شَيْـبٌ لَـمْ يُفِـدْهُ خِضَـابُ

* * *

زهد رجل من بني العبّاس

قَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلْمُعَلِّمِ : خَرَجْنَا مِن ٱلْمَدِينَةِ حُجَّاجًا فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ مِنْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ قَدْ رَفَضَ ٱلدُّنْيَا وَأَقْبَلَ عَلَى ٱلآخِرَةِ. فَجَمَعَتْنِي وَإِيَّاهُ ٱلطَّرِيقُ فَأَنِسْتُ بِهِ وَقُلْتُ لَهُ: هَلْ لَكَ أَنْ تُعَادِلَنِي فَإِنَّ مَعِي فَضْلًا مِنْ رَاحِلَتِي. فَجَزَانِي خَيْرًا. ثُمَّ أَنِسَ إِلَيَّ فَجَعَلَ يُحَدِّثُنِي فَقَالَ: أَنَا رَجُلٌ مِنْ وُلْدِ ٱلْعَبَّاسِ كُنْتُ أَسْكُنُ ٱلْبَصْرَةَ وَكُنْتُ ذَا كِبْرٍ شَدِيدٍ وَنِعْمَةٍ طَائِلَةٍ وَمَالٍ كَثِيرٍ وَبَذخٍ زَائِدٍ. فَأَمَرْتُ يَوْمًا خَادِمًا لِي أَنْ يَحْشُوَ لِي فِرَاشًا مِنْ حَرِيرٍ وَمِخَدَّةً بِوَرْدٍ نَثِيرٍ. فَفَعَلَ. فَإِنِّي لَنَائِمٌ إِذَا بِقِمَعِ وَرْدَةٍ قَدْ نَسِيَهُ ٱلْخَادِمُ فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَأَوْجَعْتُهُ ضَرْبًا. ثُمَّ عُدتُ إِلَى مَضْجَعِي بَعْدَ إِخْرَاجِ ٱلْقِمَعِ مِنَ ٱلمِخَدَّة. فَأَتَانِي آتٍ فِي مَنَامِي فِي صُورَةٍ فَظِيعَةٍ فَهَزَّنِي وَقَالَ: أَفِقْ مِنْ غَشْيَتِكَ وَٱنْتَبِهْ مِنْ رَقْدَتِكَ ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

يَا خِلُّ إِنَّكَ إِنْ تَوَسَّدْ لَيِّنًا ... وُسِّدتَ بَعْدَ ٱلْيَوْمِ صُمَّ ٱلْجَنْدَلِ

فَٱمْهَدْ لِنَفْسِكَ صَالِحًا تَسْعَدْ بِهِ ... فَلَتَنْدَمَنَّ غَدًا إِذَا لَمْ تَفْعَلِ

فَٱنْتَبَهْتُ مَرْعُوبًا. وَخَرَجْتُ مِنْ سَاعَتِي هَارِبًا إِلَى رَبِّي.

★ ★ ★

ذو النون والزاهدة

قَالَ ذُو ٱلنُّونِ: بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ عَلَى سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ إِذْ بَصُرْتُ بجارية عَلَيْهَا أَطْمَارُ شَعَرٍ. فَإِذَا هِيَ نَاحِلَةٌ ذَابِلَةٌ. فَدَنَوْتُ مِنْهَا لِأَسْمَعَ ما تقول فَرَأَيْتُهَا مُتَّصِلَةَ ٱلْأَحْزَانِ بِٱلْأَشْجَانِ. وَعَصَفَتِ ٱلرِّيَاحُ وَٱضْطَرَبَتِ ٱلْأَمْوَاجُ وَظَهَرَتِ ٱلْحِيتَانُ. فَصَرَخَتْ ثُمَّ سَقَطَتْ إِلَى ٱلْأَرْضِ. فَلَمَّا قَامَتْ نَحبَتْ ثُمَّ قَالَتْ: سَيِّدِي بِكَ تَقَرَّبَ ٱلْمُتَقَرِّبُونَ فِي الْخَلَواتِ. وَلِعَظَمَتِكَ سَبَّحَتِ ٱلنِّينَانُ[1] فِي ٱلْبِحَارِ الزَّاخِرَاتِ. وَلِجَلَالِ قُدْسِكَ تَصَافَقَتِ ٱلْأَمْوَاجُ ٱلْمُتَلَاطِمَاتُ. أَنْتَ ٱلَّذِي سَجَدَ لَكَ سَوَادُ ٱللَّيْلِ وَضَوءُ ٱلنَّهَارِ. وَٱلْفَلَكُ ٱلدَّوَّارُ، وَٱلْبَحْرُ الزَّخَّارُ، وَٱلْقَمَرُ ٱلنَّوَّارُ، وَٱلنَّجْمُ ٱلزَّهَّارُ. وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَكَ بِمِقْدَارٍ لِأَنَّكَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْقَهَّارُ. ثُمَّ أَنْشَدَتْ:

يَا مُؤْنِسَ ٱلْأَبْرَارِ فِي خَلَوَاتِهِمْ ... يَا خَيْرَ مَنْ حَطَّتْ بِهِ ٱلنُّزَّالُ
مَنْ ذَاقَ حُبَّكَ لَا يَزَالُ مُتَيَّمًا ... قَرِحَ ٱلْفُؤَادَ مُتَيَّمًا بَلْبَالُ

فَقُلْتُ لَهَا: عَسَى أَنْ تَزِيدِينِي مِنْ هٰذا. فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي. ثُمَّ رَفَعَتْ طَرْفَهَا نَحْوَ ٱلسَّمَاءِ فَقَالَتْ:

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ حُبَّ ٱلْوَدَادِ ... وَحُبًّا لِأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَاكَا

---

(١) النينان: جمع النون، وهو الحوت.

فَأَمَّا ٱلَّذِي هُوَ حُبُّ ٱلْوِدَادِ فَحُبٌّ شُغِلْتُ بِهِ عَنْ سِوَاكَا
وَأَمَّا ٱلَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فَكَشْفُكَ لِلْحُجْبِ حَتَّى أَرَاكَا
فَمَا ٱلْحَمْدُ فِي ذَا وَلَا ذَاكَ لِي وَلٰكِنْ لَكَ ٱلْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَا

ثُمَّ شَهِقَتْ شَهْقَةً فَإِذَا هِيَ قَدْ فَارَقَتِ ٱلدُّنْيَا.

★ ★ ★

قَالَ ٱبْنُ قَاضِي مِيلَةَ:

لِدُنْيَاكَ نُورٌ وَلٰكِنَّهُ ظَلَامٌ يَحَارُ بِهِ ٱلْمُبْصِرُ
فَإِنْ عِشْتَ فِيهَا عَلَى أَنَّهَا كَمَا قِيلَ قَنْطَرَةٌ تُعْبَرُ
فَلَا تَعْمُرَنَّ بِهَا مَنْزِلًا فَإِنَّ ٱلْخَرَابَ لِمَا تَعْمُرُ
وَلَا تَدْخَرَنَّ خِلَافَ ٱلتُّقَى فَتَفْنَى وَيَبْقَى ٱلَّذِي تَدْخَرُ

★ ★ ★

قَدْ شَبَّهَ بَعْضُهُمُ ٱلدُّنْيَا بِخَيَالِ ٱلظِّلِّ فَقَالَ:

رَأَيْتُ خَيَالَ ٱلظِّلِّ أَعْظَمَ عِبْرَةً لِمَنْ كَانَ فِي عِلْمِ ٱلْحَقَائِقِ رَاقِي
شُخُوصًا وَأَشْبَاحًا يُخَالِفُ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ وَأَشْكَالًا بِغَيْرِ وِفَاقِ
تَجِيءُ وَتَمْضِي بَابَةً بَعْدَ بَابَةٍ وَتَفْنَى جَمِيعًا وَٱلْمُحَرِّكُ بَاقِ

★ ★ ★

وَقَالَ شَرَفُ بْنُ أَسَدٍ فِي مَعْنَاهُ:

يَا مَنْ تَمَلَّكَ مُلْكًا لَا بَقَاءَ لَهُ حَمَّلْتَ نَفْسَكَ آثَامًا وَأَوْزَارَا
هَلِ ٱلْحَيَاةُ بِذِي ٱلدُّنْيَا وَإِنْ عَذُبَتْ إِلَّا كَطَيْفِ خَيَالٍ فِي ٱلْكَرَى زَارَا

★ ★ ★

وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

وَغَايَةُ هٰذِي ٱلدَّارِ لَذَّةُ سَاعَةٍ ... وَيَعْقُبُهَا ٱلْأَحْزَانُ وَٱلْهَمُّ وَٱلنَّدَمْ
وَهَاتِيكَ دَارُ ٱلْأَمْنِ وَٱلْعِزِّ وَٱلتُّقَى ... وَرَحْمَةِ رَبِّ ٱلنَّاسِ وَٱلْجُودِ وَٱلْكَرَمْ

* * *

قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ:

أَتَيْتُ ٱلْقُبُورَ فَنَادَيْتُهَا ... فَأَيْنَ ٱلْمُعَظَّمُ وَٱلْمُحْتَقَرْ
وَأَيْنَ ٱلْمُذِلُّ بِسُلْطَانِهِ ... وَأَيْنَ ٱلْمُذَكَّى إِذَا مَا ٱفْتَخَرْ
فَنُودِيتُ مِنْ بَيْنِهِمْ لَا أَرَى ... شُخُوصًا لَهُمْ وَلَا مِنْ أَثَرْ
تَفَانَوْا جَمِيعًا فَلَا مُخْبِرٌ ... وَمَاتُوا جَمِيعًا وَمَاتَ ٱلْخَبَرْ
فَيَا سَائِلِي عَنْ أُنَاسٍ مَضَوْا ... أَمَا لَكَ فِيمَا تَرَى مُعْتَبَرْ
تَرُوحُ وَتَغْدُو بَنَاتُ ٱلثَّرَى ... وَتُمْحَى مَحَاسِنُ تِلْكَ ٱلصُّوَرْ

* * *

قَالَ سَابِقٌ ٱلْبَرْبَرِيُّ وَأَجَادَ:

تَلْهُو وَتَأْمُلُ أَيَّامًا تُعَدُّ لَنَا ... سَرِيعَةَ ٱلْمَرِّ تَطْوِينَا وَنَطْوِيهَا
كَمْ مِنْ عَزِيزٍ سَيَلْقَى بَعْدَ عِزَّتِهِ ... ذُلًّا وَضَاحِكَةٍ يَوْمًا سَتُبْكِيهَا
وَلِلْحُتُوفِ تُرَبِّي كُلُّ مُرْضِعَةٍ ... وَلِلْحِسَابِ بَرَى ٱلْأَرْوَاحَ بَارِيهَا
لَا تَبْرَحُ ٱلنَّفْسُ تُنْعَى وَهْيَ سَالِمَةٌ ... حَتَّى يَقُومَ بِنَادِي ٱلْقَوْمِ نَاعِيهَا
أَمْوَالُنَا لِذَوِي ٱلْمِيرَاثِ نَجْمَعُهَا ... وَدُورُنَا لِخَرَابِ ٱلدَّهْرِ نَبْنِيهَا

* * *

قَالَ بَهَاءُ آلدِّينِ زُهَيْرٌ:

لَيْتَ شِعْرِي لَيْتَ شِعْرِي ... أَيُّ أَرْضٍ هِيَ قَبْرِي

ضَاعَ عُمْرِي فِي آغْتِرَابِ ... وَرَحِيلٍ مُسْتَمِرٌّ

وَمَتَى يَوْمُ وَفَاتِي ... لَيْتَنِي لَوْ كُنْتُ أَدْرِي

لَيْسَ لِي فِي كُلِّ أَرْضٍ ... جِئْتُهَا مِنْ مُسْتَقَرٌّ

بَعْدَ هٰذَا لَيْتَنِي أَعْـ ... ـرِفُ مَا آخِرُ عُمْرِي

وَمَتَى أَخْلُصُ مِمَّا ... أَنَا فِيهِ لَيْتَ شِعْرِي

وَلَقَدْ آنَ بِأَنْ أَصْـ ... ـحُو فَمَا لِي طَالَ سُكْرِي

أَتُرَى يُسْتَدْرَكُ آلْفَا ... رِطُ مِنْ تَضْيِيعِ عُمْرِي

* * *

وَمَا أَجْوَدَ قَوْلَ آبْنِ أَبِي زَمَنَيْنِ:

أَلْمَوْتُ فِي كُلِّ حِينٍ يَنْشُرُ آلْكَفَنَا ... وَنَحْنُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِنَا

لَا تَطْمَئِنَّ إِلَى آلدُّنْيَا وَبَهْجَتِهَا ... وَإِنْ تَوَشَّحْتَ مِنْ أَثْوَابِهَا آلْحَسَنَا

أَيْنَ آلْأَحِبَّةُ وَآلْجِيرَانُ مَا فَعَلُوا ... أَيْنَ آلَّذِينَ هُمُ كَانُوا لَنَا سَكَنَا

سَقَاهُمُ آلْمَوْتُ كَأْسًا غَيْرَ صَافِيَةٍ ... فَصَيَّرَتْهُمْ لِأَطْبَاقِ آلثَّرَى رُهُنَا

تَبْكِي آلْمَنَازِلُ مِنْهُمْ كُلَّ مُنْسَجِمٍ ... بِآلْمَكْرُمَاتِ وَتَرْثِي آلْبِرَّ وَآلْمِنَنَا

حَسْبُ آلْحِمَامِ لَوَ آبْقَاهُمْ وَأَمْهَلَهُمْ ... أَلَّا يُظَنَّ عَلَى مَعْلُومِهِ حَسَنَا

* * *

دَخَلَ عَبْدُآللهِ بْنُ آلْفَضْلِ عَلَى أَبِي حَفْصٍ آلشِّطْرَنْجِيِّ يَعُودُهُ فِي عِلَّتِهِ آلَّتِي مَاتَ فِيهَا. فَأَنْشَدَهُ قَوْلَهُ:

نَعَى لَكَ ظِلَّ ٱلشَّبَابِ ٱلْمَشِيبُ وَنَادَتْكَ بِٱسْمٍ سِوَاكَ ٱلْخُطُوبُ
فَكُنْ مُسْتَعِدًّا لِدَاعِي ٱلْفَنَاءِ فَإِنَّ ٱلَّذِي هُوَ آتٍ قَرِيبُ
أَلَسْنَا نَرَى شَهَوَاتِ ٱلنُّفُو سِ تَفْنَى وَتَبْقَى عَلَيْهَا ٱلذُّنُوبُ
وَقَبْلَكَ دَاوَى ٱلْمَرِيضَ ٱلطَّبِيبُ فَعَاشَ ٱلْمَرِيضُ وَمَاتَ ٱلطَّبِيبُ
يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مَنْ يَتُوبُ فَكَيْفَ تَرَى حَالَ مَنْ لَا يَتُوبُ

★ ★ ★

قَالَ حُرَيْثُ بْنُ جَبَلَةَ ٱلْعُذْرِيُّ وَقِيلَ عِثْيَرُ بْنُ لَبِيدٍ ٱلْعُذْرِيُّ:

يَا قَلْبُ إِنَّكَ فِي ٱلْأَحْيَاءِ مَغْرُورُ فَٱذْكُرْ وَهَلْ يَنْفَعَنْكَ ٱلْيَوْمَ تَذْكِيرُ
تُرِيدُ أَمْرًا فَمَا تَدْرِي أَعَاجِلُهُ خَيْرٌ لِنَفْسِكَ أَمْ مَا فِيهِ تَأْخِيرُ
فَٱسْتَقْدِرِ ٱللهَ خَيْرًا وَٱرْضَيَنَّ بِهِ فَبَيْنَمَا ٱلْعُسْرُ إِذْ دَارَتْ مَيَاسِيرُ
وَبَيْنَمَا ٱلْمَرْءُ فِي ٱلاحْيَاءِ مُغْتَبِطٌ إِذْ صَارَ فِي ٱلرَّمْسِ تَعْفُوهُ ٱلْأَعَاصِيرُ
حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَوَهُّمُهُ وَٱلدَّهْرُ فِي كُلِّ حَالَيْهِ دَهَارِيرُ
يَبْكِي ٱلْغَرِيبُ عَلَيْهِ لَيْسَ يَعْرِفُهُ وَذُو قَرَابَتِهِ فِي ٱلْحَيِّ مَسْرُورُ

★ ★ ★

قَالَ آخَرُ:

وَيْلِي إِذَا كَانَ ٱلْجَحِيمُ جَزَائِي مَاذَا يَحِلُّ بِمُهْجَتِي وَبَهَائِي
يُبْلِي ٱلْعَذَابُ مَحَاسِنِي وَيَشِينُهَا وَيَطُولُ مِنِّي فِي ٱلْجَحِيمِ بُكَائِي
وَيَقُولُ لِي ٱلْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ يَا عَبْدَ سَوْءٍ أَنْتَ مِنْ أَعْدَائِي
بَارَزْتَنِي وَعَصَيْتَ أَمْرِي جَاهِلًا وَنَسِيتَ وَعْدِي مَا تَخَافُ لِقَائِي
وَتَرَى وُجُوهَ ٱلطَّائِعِينَ كَأَنَّهَا بَدْرٌ بَدَا فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءِ

كَشَفُوا ٱلْحِجَابَ فَشَاهَدُوهُ وَأُدْهِشُوا   وَكُسُوا نَعِيمًا دَائِمًا بِضِيَاءِ

* * *

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ خَاتِمَةَ مُسْتَغِيثًا بِهِ تَعَالَى:

يَا مَنْ يَغِيثُ ٱلْوَرَى مِنْ بَعْدِمَا قَنَطُوا   اِرْحَمْ عِبَادًا أَكُفَّ ٱلْفَقْرِ قَدْ بَسَطُوا

عَوَّدْتَهُمْ بَسْطَ أَرْزَاقٍ بِلَا سَبَبٍ   سِوَى جَمِيلِ رَجَاءٍ نَحْوَهُ ٱنْبَسَطُوا

وَعَدتَ بِٱلْفَضْلِ فِي وِرْدٍ وَفِي صَدَرٍ   بِٱلْجُودِ إِنْ أَقْسَطُوا وَٱلْحِلْمِ إِنْ قَسَطُوا

عَوَارِفُ ٱرْتَبَطَتْ شُمُّ ٱلْأُنُوفِ بِهَا   وَكُلُّ صَعْبٍ بِقَيْدِ ٱلْجُودِ يَرْتَبِطُ

يَا مَنْ تَعَرَّفَ بِٱلْمَعْرُوفِ فَٱعْتَرَفَتْ   بِجَمِّ إِنْعَامِهِ ٱلْأَطْرَافُ وَٱلْوَسَطُ

وَعَالِمًا بِخَفِيَّاتِ ٱلْأُمُورِ فَلَا   وَهْمٌ يَجُوزُ عَلَيْهِ لَا وَلَا غَلَطُ

عَبْدٌ فَقِيرٌ بِبَابِ ٱلْجُودِ مُنْكَسِرٌ   مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُوَافِي حِينَ يَنْضَغِطُ

مَهْمَا أَتَى لِيَمُدَّ ٱلْكَفَّ أَخْجَلَهُ   قَبَائِحٌ وَخَطَايَا أَمْرُهَا فَرَطُ

يَا وَاسِعًا ضَاقَ خَطْوُ ٱلْخَلْقِ عَنْ نِعَمٍ   مِنْهُ إِذَا خَطَبُوا فِي شُكْرِهَا خَبَطُوا

وَنَاشِرًا بِيَدِ ٱلْإِجْمَالِ رَحْمَتَهُ   فَلَيْسَ يَلْحَقُ مِنْهُ مُسْرِفًا قَنَطُ

اِرْحَمْ عِبَادًا بِضَنْكِ ٱلْعَيْشِ مَا لَهُمُ   غَيْرَ ٱلدُّجُنَّةِ لُحْفٌ وَٱلثَّرَى بُسُطُ

لٰكِنَّهُمْ مِنْ ذُرَى عَلْيَاكَ فِي نَمَطٍ   سَامٍ رَفِيعِ ٱلذُّرَى مَا فَوْقَهُ نَمَطُ

وَمَنْ يَكُنْ بِٱلَّذِي يَهْوَاهُ مُجْتَمِعًا   فَمَا يُبَالِي أَقَامَ ٱلْحَيُّ أَمْ شَحَطُوا

نَحْنُ ٱلْعَبِيدُ وَأَنْتَ ٱلْمَلِكُ لَيْسَ سِوَى   وَكُلُّ شَيْءٍ يُرَجَّى بَعْدَ ذَا شَطَطُ

* * *

قَالَ آخَرُ:

أَقْصَرْتُ عَنْ طَلَبِ ٱلْبِطَالَةِ وَٱلصِّبَا   لَمَّا عَلَانِي لِلْمَشِيبِ قِنَاعُ

لِلهِ أَيَّـــامُ الشَّبـــابِ وَأَهْلُـــــهُ لَــوْ أَنَّ أَيَّـــامَ ٱلشَّبَـــابِ تُبَـــاعُ
فَدَعِ ٱلصِّبَا يَا قَلْبُ وَٱلْهُ عَنِ ٱلْهَـوَى مَـا فِيـكَ بَعْـدَ مَشِيبِـكَ ٱسْتِمْتَـاعُ
وَٱنْظُرْ إِلَـى ٱلـدُّنْيَـا بِعَيْـنِ مُـوَدِّعٍ فَلَقَـدْ دَنَـا سَفَـرٌ وَحَـانَ وَدَاعُ
وَٱلْحَـادِثَـاتُ مُـوَكَّلاتٌ بِـٱلْفَتَـى وَٱلنَّـاسُ بَعْـدَ ٱلْحَـادِثَـاتِ سَمَـاعُ

★ ★ ★

قَالَ بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ:

تَعَافُ ٱلْقَذَى فِي ٱلْمَـاءِ لَا تَسْتَطِيعُـهُ وَتَكْرَعُ فِي حَوْضِ ٱلذُّنُوبِ فَتَشْـرَبُ
وَتُـؤْثِـرُ مِـنْ أَكْـلِ ٱلطَّعَـامِ أَلَـذَّهُ وَلَا تَذْكُرُ ٱلْمِسْكِينَ مِنْ أَيْنَ يَكْسِـبُ

★ ★ ★

وَقَالَ ٱلْقَاسِمُ بْن إِبْراهيم:

أَيُّهـا الطّالــبُ أَجْمِــلْ وَاقْتَصِــدْ وأَرِحْ نفسَكَ مِــنْ جُهْـدٍ وَكَــدْ
لا يَـزيـدُ الحِـرْصُ مِـن رِزْقٍ ولا يُنْقِـصُ الإِخْمـالُ مِن رِزْقٍ أَحَــدْ
فَـاتَّعِـظْ واسْمَـحْ لِمـا أَنْـتَ لَـهُ وَتَــزَوَّدْ زادَكَ اليَــوْمَ لِغَــدْ
إِنَّمــا الدُّنْيــا مَتـــاعٌ زائِـــلٌ عَــنْ قليــلٍ وإلــى اللهِ المَـرَدْ

★ ★ ★

وَقَال بشّار بْنُ برد:

بدا لِيَ أَنَّ الدَّهْرَ يَقْـدَحُ فـي الصَّفَـا وأَنَّ بقَــائـي إنْ حَيِيْــتُ قليــلُ
فَعِشْ خائِفًا لِلْموتِ أَوْ غيرَ خـائـفٍ على كُـلِّ نفسٍ لِلْحِمـام[1] دليــلُ
خليلُكَ ما قَدَّمْتَ مِـن عَمَـلِ التُّقـى وَلَيـسَ لأيّـامِ المنـونِ[2] خليــلُ

★ ★ ★

(١) الحِمام: الموت.
(٢) المنون: الموت.

وَقالَ:

لَعَلَّكَ تَرْجو أَنْ تَعيشَ مُخَلَّدًا ... أَبَى ذاكَ شُبَّانٌ لنا وكُهولُ
ولِلدَّهْرِ أيّامٌ قِصارٌ إذا سَرَتْ ... بِخَيْرٍ وَيَومُ الحزْنِ مِنْهُ طَويلُ

★ ★ ★

وَقالَ الحُسين بْنُ مَطِير:

وما الجودُ مِنْ فَقْرِ الرِّجالِ ولا الغِنى ... ولكنَّ ذا خِيمُ الرِّجالِ وخِيرُها
فكَمْ طامعٍ في حاجَةٍ لَنْ ينالَها ... وكم يائِسٍ منها أتاهُ بشيرُها
وَنَفْسَكَ أكْرِمْ عَنْ أمورٍ كَثيرةٍ ... فما لَكَ نَفْسٌ بعدَها تَسْتَعيرُها
فَمَنْ يَتَّبِعْ ما يُعْجبُ النَّفْسَ لم يَزَلْ ... مُطيعًا لها في فعلِ شَيْءٍ يَضِيرُها
ولا تقربِ الأمْرَ الحرامَ فإنَّه ... حلاوتُه تفنى ويبقى مريرُها
ولا تُلْهِكَ الدنيا عن الحقِّ واعْتمدْ ... لِآخرةٍ لا بدَّ أنْ ستصيرُها

★ ★ ★

وَقَالَ الخليل بْنُ أحمد الفراهيديّ:

وقبلَكَ داوَى الطبيبُ المريضَ ... فَعاشَ المريضُ وماتَ الطَّبيبُ
فكُنْ مُسْتَعِدًّا لِدارِ الفَناءِ ... فإنَّ الذي هو آتٍ قَريبُ

★ ★ ★

وَقَال العتّابيّ (كلثوم بن عمرو):

حَتّى متى أنا في حِلٍّ وتَرْحالِ ... وطولِ شُغْلٍ بإدْبارٍ وإقبالِ

بِمَشْرِقِ الأَرْضِ طورًا ثـمَّ مَغـرِبِها ... لا يَخْطُرُ الموتُ مِنْ حرْصٍ على بالي

ونـازحِ الدّارِ مـا أَنْفَـكُّ مُغْتَـرِبًـا ... عَنِ الأَحِبَّةِ مـا يَـدْرُون مـا حـالـي

ولو قَنِعْـتُ أَتـانـي الرِّزْقُ فـي دَعَـةٍ ... إنَّ القَنـوعَ الغِنـى لا كَثْـرَةُ المـالِ

★ ★ ★

وقالت ميمونة السوداء:

وليسَ لِلْميِّـتِ فـي قَبْـرِه ... فِطْـرٌ ولا أَضْحـى ولا عشـرُ

بـاتَ مِنَ الأَهْـلِ علـى قُـرْبِـه ... كـذاكَ مَـنْ مَسْكَنُـه القَبْـرُ

★ ★ ★

وقال الإمام علي الرِّضا:

لا تَحْرَصَنْ فالحِرْصُ يُزْري بالفَتَى ... ويُـذْهِـبُ الرَّوْنـقَ عـن بَهْجَتِـهْ

والحـظُّ لا تجلُبُـهُ حِيلَـةٌ ... كَيـفَ يخـافُ المرءُ مِن فَقْـرَتِـهْ

مـا فـاتـكَ اليـومَ سَيَـأتـي غـدًا ... مـا فـي الذي قُـدِّرَ مِـن حيلَتِـهْ

والرِّزْقُ مَضْمُـونٌ علـى واحـدٍ ... مفـاتِـحُ الأَشْيـاءِ فـي قَبْضتِـهْ

قـد يُـرْزَقُ العـاجِـزُ مَـعْ عجـزِهِ ... ويُحْـرَمُ الكَيِّسُ[1] مَـعْ فِطْنَتِـهْ

لا تَنْهُـرِ المِسْكيـنَ يَـومًـا أَتـى ... فَقَـدْ نَهـاكَ اللهُ عـن نَهْـرَتِـهْ

إنْ عضَّـكَ الدَّهْـرُ فَكُـنْ صـابِـرًا ... علـى الذي فـاتـكَ مـن عَضَّتِـهْ

أو مَسَّـكَ الضُّـرُّ فلا تَشْتكـي ... إلّا لِمَـنْ تَطْمَـعُ فـي رَحْمَتِـه

وَاقْنَـعْ بمـا أَعطـاكَ مِـنْ فَضْلِـهِ ... واشْكُـرْ لِمـولاكَ علـى نِعْمَتِـهْ

★ ★ ★

(١) الكَيِّس: الذكيّ.

وقال منصور التميميّ:

ألا إنَّ رِزْقَ اللهِ لَيْسَ يَفــــوتُ   فلا تــرعَــنْ إنَّ القليــلَ يفـــوتُ
رَضيــتُ بقسْــمِ اللهِ حظًّــا لأنَّــه   تكفَّـلَ رزقـي مَـن لَـهُ المَلَكُـوتُ
سـأقْنَعُ بـالمـالِ القليـلِ لأنَّنـي   رَأيـتُ أخـا المـالِ الكثيـرِ يَمـوتُ

★ ★ ★

وقال:

مَــنْ كَفــاهُ مِــن مســاعيــهِ رَغيــفٌ يَغْتَــذيــهِ
ولــهُ بيــتٌ يُــواريــهِ وثَــوبٌ يَكْتَسيــهِ
فـلمــاذا يَبْــذُلُ العِــرْضَ لِنَــذْلٍ أو سَفيــهِ
كــلُّ مــالٍ مَنَعتْــهُ السَّيْــرَ أيــدى بــاذليــهِ
فَهْــوَ لِلــوارثِ والوِزْرُ علــى مُكْتَسِبيــهِ

★ ★ ★

وقال أحمد بن يوسف:

ما بَعْدَ شيبِكَ غَيْرُ لـومِكَ فَـاتَّخِـذْ   زادًا لِنَفْسِكَ فـالـرَّحيـلُ قـريـبُ
مـا هــذِهِ الدُّنيـا بــدارِ إقـامَـةٍ   لا تـوطنَـنَّ بهـا وأنْـتَ غـريـبُ
أيـنَ الأولـى أهـل السيـادةِ والنُّهـى   والمُطْعِمـونَ ومـا تَـدُرُّ حَلـوبُ
أخْنَــى الزَّمــانُ عليهــمُ بشعــارِهِ   وسَقَتْهُمُ كـأسَ المنونِ شَعوبُ[1]

---

(١) شعوب: اسم للمنيّة.

وغـدًا جـزاءُ سعـادةٍ أو شِقْـوةٍ   أفلا يُنيـبُ إلـى الرَّشـادِ مُنيـبُ
والمـوتُ يَغْتـالُ النُّفـوسَ ولـم يَـزَلْ   لِلمَـوتِ داعٍ للنُّفـوس طَلـوبُ

★ ★ ★

وقال ابن الروميّ:

حتّـى مَتَـى نَشْتـري الدُّنيـا بـآخِـرةٍ   سَفـاهـةً ونَبيعُ الْفَـوْقَ بـالـدُّونِ
مُعَلَّليـنَ بـآمـالٍ تُخـادِعُنـا   وَزُخْرفٍ من غُرورِ العيشِ مَوْهـونِ

★ ★ ★

وقال أبو عقال بن علوان:

أجِـبْ داعِـيَ اللهِ لا تَعْصِـهِ   فَقَدْ جـادَ بـالنُّصْحِ جَهْـرًا ونـادَى
ولا تَلْـهَ بـالمُـوبِقـاتِ التـي   أبـادَتْ بـوائقُهـا مَـن تَمـادَى
رَضيـتُ بـدُونِ الكفـايـةِ قُـوتًـا   وبـاللهِ عَـنْ كُـلِّ خَلْـقٍ عِمـادا
فَـأضْحـى الملـوكُ وأهْـلُ النَّعيـمِ   أَقَـلَّ الْبَـرِيَّـةِ عِنْـدي عِـدادا
وَأَسْقَطْـتُ لـومي عـنِ العـالميـنَ   فَمَـنْ شـاءَ ودَّ وَمـن شـاءَ عـادَى
فلَـمْ أرَ عيشًـا كَعيـشِ القنـوعِ   ولـمْ أرَ مِثْـلَ القَنـوعِ مُـرادا

★ ★ ★

وقال بكر بن حماد:

النّاسُ حِرْصٌ على الدُّنْيا وَقَدْ فَسُدَتْ   فَصَفْـوهَـا لَـكَ مَمْـزُوجٌ بتَكْـدِيـرِ
فَمِـنْ مُكِـبٍّ عَلَيهـا لا تسـاعِـدُه   وعـاجِـزٍ نـالَ دُنْيـاهُ بِتَقْصِيـرِ

لمْ يُدْرِكوها بِعَقْلٍ عِنْدما قسمتْ ... وإنَّما أدْرَكُوها بالمقادِيرِ

لو كان عَنْ قَدَرٍ أو عنْ مُغالَبَةٍ ... طارَ البُزاةُ بأَرْزاقِ العَصافيرِ

★ ★ ★

وقال سريح بن يوسف:

يا طالِبَ الرِّزْقِ في الآفاقِ مُجْتَهِدًا ... أبْقَيْتَ نفسَكَ حتى شَفَّكَ التَّعَبُ

تَسْعَى لِرِزْقٍ كَفَاكَ اللهُ مُؤنَتَهُ ... أقْصِرْ فَرِزْقُكَ لا يَأْتي بهِ الطَّلَبُ

فَاسْتَرْزِقِ اللهَ مِمّا في خزائِنِهِ ... فاللهُ يَرْزُقُ لا عَقْلٌ ولا حَسَبُ

★ ★ ★

وقال ابن بسام:

أَقْصَرْتُ عَنْ طَلَبِ البطالةِ والصِّبا ... لَمَّا علانِي لِلْمَشيبِ قِناعُ

فَدَعِ الصِّبا يا قَلْبُ وَاسْلُ عَنِ الْهَوَى ... ما مِنْكَ بَعْدَ مَشيبِكَ اسْتِمْتاعُ

وانْظُرْ إلى الدُّنْيا بِعَيْنِ مُوَدِّعٍ ... فَلَقَدْ دَنا سَفَرٌ وحانَ وداعُ

والحادِثاتُ مُوَكَّلاتٌ بِالْفتى ... والناسُ بعدَ الحادِثاتِ سَماعُ

★ ★ ★

وقال ابن أبي الدنيا (عبدالله بن محمد):

ومَنْ ظَنَّ أنَّ الرِّزْقَ يأتي بحِيلَةٍ ... فَقَدْ كَذَّبَتْهُ نَفْسُهُ وهو آثِمُ

يَفوتُ الغِنى من لا يَنامُ عن السُّرى ... وآخرٌ يأْتي رِزْقَهُ وَهْوَ نائِمُ

سَـأَصْبِـرُ إنْ دَهْـرٌ أنـاخَ بَكَلْكَـلٍ   وَأَرْضَـى بحُكْـمِ اللهِ فـاللهُ حـاكِـمُ

★ ★ ★

وقال أبو نصر بشر بن الحارث الحافي:

أَقْسَمْـتُ بـاللهِ لَـرَضْـخُ النَّـوى[1]   وَشُـرْبُ مـاءِ الأَعْيُـنِ المـالحَـهْ

أَعَـزُّ لِلإنْسـانِ مِـنْ حِـرْصِـهِ   ومِـنْ سُؤالِ الأَوْجُـهِ الكـالِحَـهْ

فَـاسْتَغْـنِ بـاللهِ تَكُـنْ ذا غِنًـى   مُغْتَبِطـاً بـالصَّفْقَـةِ الرّابِحَـهْ

مَـنْ كـانَـتِ الدُّنْيـا بِـهِ بَـرَّةً   فـإنَّهـا يَـومًـا لَـهُ ذابِحَـهْ

★ ★ ★

وقال كشاجـم:

وَمُسْتَـزِيـدٍ فـي طِلابِ الْغِنـى   يَجْمَـعُ لَحْمـاً مـا لَـهُ طـابِـخُ

ضَيَّـعَ أمـوالاً بمـا يَـرْتَجـي   والنّـارُ قـد يُطْفِئُهـا النّـافِـخُ

★ ★ ★

وقال حرب بن المنذر:

فَحَسْبي مِنَ الدُّنيـا كَفـافٌ يُقيمُنـي   وَأَثْـوابُ كتّـانٍ أَزورُ بِهـا قَبْـري

وحُبِّـي ذَوِي قُـرْبـى النَّبـيِّ مُحَمَّـدٍ   فمـا سُـؤْلُنـا إلّا المَـوَدَّةُ مِـنْ أجْـرِ

★ ★ ★

وقال الفارابي:

أخـي خَـلِّ حَيِّـزَ ذي بـاطـلٍ   وكُـنْ لِلحقـائـقِ فـي حَيِّـزِ

---

(١) رضْخ النَّوى: كَسْر بزرات التمر، وأكلها.

فمــــا الدّارُ دارُ خلــــودٍ لَنـــا ولا المَـرْءُ فـي الأَرْضِ بـالمُعْجـزِ
وهـل نَحْــنُ إلّا خُطـوطٌ وقعْــنَ علــى كُــرَةٍ وَقْــعَ مُسْتَــوْفِــزِ
ينــافِسُ هــذا لِــذاكَ علــى أقَــلَّ مِــنَ الكَلِـمِ المــوجـزِ
مُحيــطُ السمــواتِ أَوْلــى بِنــا فَفِيـمَ التّــزاحُـمُ فــي المــرْكَــزِ

★ ★ ★

وقال ابن أبي زندقة:

إنَّ لِلهِ عبـــاداً فُطُنـــا طَلَّقوا الدُّنيا وخـافـوا الفِتَنَـا
فَكَّـروا فيهـا فلمّـا عَلِمـوا أنَّهـا لَيْسَـتْ لِحَـيٍّ وَطنـا
جَعَلـوهـا لُجّـةً واتَّخَـذوا صالـحَ الأَعْمـالِ فيهـا سُفُنـا

★ ★ ★

وقال بعضهم:

إنَّ الشَّقِـيَّ الّذي فـي النّـارِ منـزلُـهُ والفَوزُ فـوزُ الذي يَنْجـو مِـنَ النَّـارِ
يا ربِّ أَسْرَفْتُ في ذَنْبـي ومَعْصِيَتـي وقَـدْ عَلِمْـتُ يَقينـاً سُـوءَ آثــاري
فاغْفِرْ ذُنوباً، إلهي، قَدْ أحَطْتَ بِهـا رَبَّ العبادِ، وزَحْـزِحْنـي عـنِ النّـارِ

★ ★ ★

وقال عمر الأنسي:

رغبْتُ عـنِ الدُّنْيـا وزخـرفِ أهلِهـا وقُلْتُ لِنفسي إنَّما العيشُ في الأُخْرى

فَدَعْني وزُهْدِيَ في الْحطامِ فـإنَّنـي ... أرَى الزُّهْدَ في الدُّنيا هو الراحةُ الكُبْرى

* * *

وقال ابن عطيف الدمشقي:

تَتَبَّـعْ يـا فَتًـى طُـرُقَ السّعـادهْ ... فتلـكَ إذا وصلْـتَ هــي السّعــادهْ

وجنِّـبْ نَفْسَـكَ الشُّبُهـاتِ وَاصْبِـرْ ... وفـي مـا حـلَّ فَـالْـزَمْهـا الزّهـادهْ

وحُـــبَّ اللهِ آثِـــرْهُ وأحْسِـــنْ ... وقُـمْ بِـالـواجبـاتِ مِـنَ العِبـادهْ

وَعَظِّـــمْ أمْـــرَهُ تَعظيـــمَ عَبْـــدٍ ... تَيَقَّـــنَ رحلـــةً فَـــأَعـــدَّ زادَهْ

ولا تَفْــرَحْ بمــا أُوتيــتَ وَانْــدَمْ ... على التَّفْـرِيـطِ عـن طَلَـبِ السَّعـادَهْ

تجنَّـــبْ مـــا نهـــاك اللهُ عنـــه ... ومــا يَعنيــكَ لا تهــدمْ مُشــادهْ

تصـوَّرْ بعـدَ مـوتِـكَ مـا تُلاقـي ... فَبَـدْيُ الأمـرِ تمكنُـه الإعـــاده

وجنّـبْ نفسَـكَ الدُّنيـا فمـنْ لـم ... يُحـاذرْهـا فقـد ملكـتْ قيـاده

ومهمـا آذنَـــتْ بِصـلاحِ أمـــرٍ ... تـراه صـالحـاً فَـاحْـذرْ فسـاده

وَرَجِّ الخيـرَ فـي الأحـوالِ إلاّ ... لِـذي ذنـبٍ فخـفْ وَاقْـدَحْ زنـاده

ومهمـا أمكنتْـكَ خصـالُ خيـرٍ ... فـآثـرْهـا تفـزْ وحـزِ الإجـاده

* * *

وقال محمد الكواكبيّ:

حَتّـامَ فـي لَيْـلِ الهُمـومِ ... زنـــادَ فِكْـرِكَ تَقْتَـدِحْ

قَلْـبٌ تَحَـرَّقَ بِـالأَسَـى ... وَدُمـوعُ عَيْـنٍ تَنْسَفِـحْ

ارْفَــقْ بنفسِــكَ واعْتَصِــم   بِحِمَـى المُهَيْمِــنِ تَنْشَــرِحْ
وَاضْــرعْ لَــهُ إنْ ضــاقَ   عَنْكَ خناقُ حـالِـكَ تَنْفَسِـحْ
مــا أَمَّ سَــاحـــةَ جُــودِهِ   ذو مِحْنَـــةٍ إلاّ مُنِـــحْ
أو جـــاءَهُ ذو المُعْضِلاتِ   بِمُغْلَـــقٍ إلّا فُتِـــحْ
فَـدَعِ الْهَـوَى وَانْهَـجْ علـى   نَهْـجِ السَّـوِيِّ المتَّضِـحْ
وَاسْمَعْ مقـالَـةَ نـاصِـحٍ   إنْ كُنْـتَ مِمَّـنْ يَنْتَصِـحْ
مـا تَـمَّ إلّا مـا يُـريـدُ   فَـدَعْ مُـرادَكَ وَاطَّـرِحْ
وَاتْـرُكْ وسـاوِسَـكَ التـي   شغلَـتْ فـؤادَكَ تَسْتَـرِحْ

★ ★ ★

وقال إسماعيل صبري:

يـا ربِّ أيـنَ تُـرى تُقـامُ جَهَنَّـمٌ   لِلظّـالِميـنَ غَـداً ولِلْأَشْـرارِ
لم يُبْقِ عَفْوُكَ في السَّمـواتِ العُلـى   والأَرْضِ شِبْـراً خـالِيـاً لِلنّـارِ
يـا رَبِّ أَهِّلْنـي لِفضلِـكَ واكْفِنـي   شَطَـطَ العُقـولِ وفِتْنَـةَ الأَفْكـارِ
يـا عـالِـمَ الأسـرارِ حَسْبـي مِحْنَـةً   عِلْمِـي بِـأَنَّـكَ عـالِـمُ الأَسْـرارِ
أخْلِقْ بِـرَحْمَتِـكَ الّتـي تَسَعُ الوَرَى   أَنْ لا تضيـقَ بـأعْظَـمِ الأَوْزارِ

★ ★ ★

وقال حمزة الملك:

مَـولايَ قـد نـامَـتْ عيـونْ   وَتَيَقَّظَـتْ أَيْضـاً عُيـونْ
نـامَـتْ عُيـونُ الخـائِنيـنَ   وعَيْـنُ نَجْمِـكَ لا تَخـونْ

تَرْنو إلينا وَهْي ساهِيةٌ عَنِ الدُّنْيا الخَؤُونْ

أتُراه أذْهلَها جلالُ اللهِ أمْ مَرُّ القُرونْ

أم أنَّ مَنْ فوقَ الثَّرى لا يَسْمعونَ ولا يعونْ

يا وَيحَ نفسيَ وهي ترسفُ في سجونْ آمنتُ أنَّ الفردَ فوقَ الأرضِ أحقرُ ما يكونْ

مولايَ لو خيَّرْتَني لَاخْتَرْتُ أنّي لا أكونْ

* * *

وقال جبلة بن حريث العذريّ:

يا قلبُ إنَّكَ في الأحْياءِ مغرورُ فَاذْكُرْ وَهَلْ يَنْفَعَنْكَ اليومَ تَذْكيرُ

حَتَّى مَتَى أَنْتَ فيها مُدْنَفٌ وَلِهٌ لا يستفِزَّنْكَ منها البدرُ والحُورُ

قَدْ بُحْتَ بالجَهْلِ لا تُخفيهِ عَنْ أحدٍ حتى جَرَتْ بكَ أطْلاقٌ محاضيرُ

تُريدُ أمراً فما تدرِي أعاجِلُهُ خَيْرٌ لِنَفْسِكَ أمْ ما فيهِ تَأْخيرُ

فَاسْتَغْفِرِ اللهَ خَيْراً وَارْضَيَنَّ بهِ فبينما العُسْرُ إذْ دارَتْ مياسِيرُ

وبينما المَرْءُ في الأحْياءِ مُغْتَبطاً إذْ صارَ في الرَّمْسِ تَعْفُوه[1] الأعاصيرُ

حتى كَأَنْ لم يَكُنْ إلّا تَوَهُّمُهُ والدَّهْرُ في كلِّ حالَيْهِ دهاريرُ

يَبْكي الغَريبُ عليهِ ليسَ يَعْرِفُهُ وذو قَرابَتِهِ في الحَيِّ مَسْرورُ

---

(١) تعفوه: تمحوه.

فَـذاكَ آخِـرُ عَهْـدٍ مِـنْ أخيـكَ إذا   ما ضُمِّنَتْ شِلْوَهُ اللُّحْدُ المحـافيـرُ[1]

★ ★ ★

وقال لبيد بن ربيعة:

بَلينـا ومـا تَبْلـى النُّجـومُ الطّـوالعُ   وتَبْقَى الجِبالُ بَعْـدَنـا والمصـانِـعُ[2]

ومـا المَـرْءُ إلاّ كـالهِلالِ وَضَـوْئِـه   يَحورُ رَماداً بَعْدَ إذْ هـو سـاطِـعُ[3]

أَلَيْسَ وَرائـي إنْ تَـراخَـتْ مَنِيَّتـي   لُزومُ العَصا تُحْنَـى عَلَيهـا الأصـابِـعُ

أُخَبِّـرُ أَخْبـارَ القُـرونِ التـي مَضَـتْ   أَدُبُّ كَـأَنّـي كُلَّمـا قُمْـتُ راكِـعُ

فلا تَبْعَـدَنْ إنَّ المنيَّـةَ مَـوعِـدٌ   عَلَينـا فـدانٍ للطُّلـوعِ وطـالِـعُ

لَعَمْرُكَ ما تَدْري الضّوارِبُ بالحَصَـى   ولا زاجِراتُ الطَّيرِ ما اللهُ صـانِـعُ[4]

★ ★ ★

وقال سعدون المجنون يخاطب الرشيد:

هَـبِ الدُّنيـا تُـواتيكـا   أَلَيْسَ المـوتُ يَـأْتيكـا

فمـا تَصْنَـعُ بـالـدُّنْيـا   وَظِـلُّ الميـلِ يَكْفيكـا

ألا يـا طـالِـبَ الدُّنْيـا   دَعِ الدُّنْيـا لِشـانيكـا

كمـا أَضْحَكَـكَ الدَّهْـرُ   كـذاكَ الدَّهْـرُ يُبْكيكـا

★ ★ ★

---

(١) الشِّلْو: العضو. اللُّحد: جمع لحد، وهو القبر. المحافير: المحفورة.

(٢) المصانع: الدور.

(٣) يحور: يصبح.

(٤) الضوارب بالحَصَى: اللواتي يدَّعين معرفة المستقبل. وكذلك زاجرات الطير.

وقال الطرماح:

كـــلُّ حَـــيٍّ مُسْتَكْمِـــلٌ عِـــدَّةَ العُمْـرِ وَمُـودٍ إذا انْقَضَـى عَـدَدُهْ[1]
عَجَباً ما عَجِبْتُ مِنْ جامِعِ المالِ يُبـاهِـي بِـهِ ويَـرْتَفِـدُهْ[2]
وَيَضيـعُ الذي يُصَيِّـرُه اللهُ إلَيـهِ فَلَيسَ يَعْتَقِـدُهْ
يـومَ لا يَنْفَـعُ المخـولَ ذا الثَّـروةِ خِلّانُـه ولا وَلَـدُهْ[3]
ثُـمَّ يُـؤْتَـى بِـهِ وَخَصْمـاهُ وَسْطَ السِّجْنِ والإنْسُ رِجْلُه وَيَـدُه
خـاشِـعَ الطَّـرْفِ لَيسَ يَنْفَعُـهُ ثَـمَّ أمـانيـهِ ولا لَـدَدُهْ[4]

★ ★ ★

وقال أحمد بن أبي سليمان:

يـا لـذَّةً قصُـرَتْ وطـالَ بَلاؤُهـا عِنْـدَ التَّـذَكُّرِ فـي الزَّمـانِ الأوَّلِ
لمَّـا تَـذَكَّرَهـا وقـال نـدامـةً مِـن بَعْـدِهـا يـا لَيْتَنـي لـم أفْعَـلِ

★ ★ ★

وقال:

أراني بِحَمْدِ اللهِ فـي المـالِ زاهـداً وفي شرفِ الدُّنْيا وفـي العِـزِّ أزْهـدا
تَخَلَّيْـتُ عـنْ دُنيـايَ إلاّ ثلاثـةً دفـاتِـرَ مِـنْ عِلْـمٍ وبيتًـا وَمَسْجِـدا

---

(١) مود: مائت.
(٢) يرتفده: يكتسبه.
(٣) المخول: المخدوم.
(٤) خاشع الطرف: منكرًا ذليلًا. ثَمَّ: هناكَ. اللدد: شدّة الخصومة.

غَنِيتُ بها عـنْ كُـلِّ شَـيْءٍ حـوَيْتُـهُ وكُنْـتُ بهـا أَغْنـى وَأَقْنَـى وأَسْعَـدا

وكَمْ قَدْ رَأَيْنا مِـن عَـزيـزٍ مُشَـرَّفٍ يَبِيـتُ مُقِـرًّا بـالضَّلالَـةِ مُجْهَـدا

فَجَتْهُ المنايا وهْـو فـي حِيـنِ غَفْلَـةٍ فَأَضْحَى ذَليلًا في التُّـرابِ مُـوَسَّـدا

★ ★ ★

زهد النعمان بن امرىء القيس

إِنَّ ٱلنُّعْمانَ بْنَ ٱمْـرِئِ ٱلْقَيْسِ ٱلْأَكْبَرِ ٱلَّذِي بَنَى ٱلْخَوَرْنَقَ وَٱلسَّدِيرَ أَشْرَفَ عَلَى ٱلْخَوَرْنَقِ يَوْماً فَأَعْجَبَهُ مَا أُوتِيَ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلسَّعَةِ وَنُفُوذ ٱلْأَمْرِ وَإِقْبَالِ ٱلْوُجُوهِ عَلَيْهِ فقَالَ لِأَصْحَابِهِ: هَلْ أُوتِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُ. فَقَالَ لَهُ حَكِيمٌ مِنْ حُكَمَاءِ أَصْحَابِهِ: هٰذَا ٱلَّذِي أُوتِيتَ شَيْءٌ لَم يَزُلْ وَلَا يَزُولُ أَمْ شَيْءٌ كَانَ لِمَنْ قَبْلَكَ زَالَ عَنْهُ وَصَارَ إِلَيْكَ. قَالَ: بَلْ شَيْءٌ كَانَ لِمَنْ قَبْلِي زَالَ عَنْهُ لَذَّتُهُ وَتَبْقَى تَبِعَتُهُ. قَالَ: فَأَيْنَ ٱلْمَهْرَبُ. قَالَ: إِمَّا أَن تُقِيمَ وَتَعْمَلَ بِطَاعَةِ ٱللهِ أَوْ تَلْبَسَ أَمْسَاحاً وَتَلْحَقَ بِجَبَلٍ تَعْبُدُ رَبَّكَ فِيهِ وَتَفِرُّ مِنَ ٱلنَّاسِ حَتَّى يَأْتِيَكَ أَجَلُكَ. قَالَ: فَإِذَا فَعَلْتُ ذٰلِكَ فَمَا لِي. قَالَ: حَيَاةٌ لَا تَمُوتُ، وَشَبَـابٌ لَا يَهْـرَمُ، وَصِحَّـةٌ لَا تَسْقَـمُ، وَمُلْكٌ جَدِيدٌ لَا يَبْلَى. قَالَ: فَأَيُّ خَيْرٍ فِيمَا يَفْنَى وَٱللهِ لَأَطْلُبَنَّ عَيْشاً لَا يَزُولُ أَبَداً. فَٱنْخَلَعَ مِنْ مُلْكِهِ وَلَبِسَ ٱلْأَمْسَاحَ وَسَاحَ فِي ٱلْأَرْضِ. وَتَبِعَهُ ٱلْحَكِيمُ وَجَعَلَا يُسَبِّحان ٱللهِ تَعَالَى حَتَّى مَاتَا. وَفِيهِ يَقولُ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ:

وَتَفَكَّـرْ رَبُّ ٱلْخَـوَرْنَـقِ إِذْ أَشْـ ـرَفَ يَـوْمًـا ولِلْهُـدَى تَفْكِيـرُ

سَـرَّهُ مَـالُـهُ وَكَثْـرَةُ مَـا يَمْـ ـلِكُ وَٱلْبَحْـرُ مُعْـرِضـاً وَٱلسَّـدِيـرُ

فَـآرْعَـوَى قَلْبُــهُ وَقَــالَ فَمَــا غِبْــ ـطَـةُ حَـيٍّ إِلَـى ٱلْمَمَــاتِ يَصِيــرُ
ثُـمَّ بَعْــدَ ٱلْفَلاحِ وَٱلْمُلْــكِ وَٱلنِّعْــ ـمَــةِ وَارَتْهُــمُ هُنَــاكَ ٱلْقُبُــورُ
ثُـمَّ صَـارُوا كَـأَنَّهُـمْ وَرَقٌ جــفَّ م فَـأَلْـوَتْ بِـهِ ٱلصَّبَـا وَٱلـدَّبُــورُ[1]

★ ★ ★

زوال الدنيا

(مِن ٱلْمَنْهَج) أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ ٱلدُّنْيَا قَدْ أَدْبَرَتْ وَآذَنَتْ بِوَدَاع . وَإِنَّ ٱلآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَشْرَفَتْ بِإِطْلَاع. أَلَا وَإِنَّ ٱلْيَوْمَ ٱلْمِضْمَارَ. وَغَدًا ٱلسِّبَاقُ، وَٱلسُّبْقَةُ ٱلْجَنَّةُ وَٱلْغَايَةُ ٱلنَّارُ. أَفَلاَ تَائِبَ مِنْ خَطِيئَتِـهِ: قَبْلَ مَنِيَّتِهِ. أَلَا عَامِلَ لِنَفْسِـهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ. أَلا وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامِ أَمَلٍ مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ. فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِـهِ قَبْلَ حُصُولِ أَجَلِهِ، نَفَعَهُ عَمَلُهُ. وَلَمْ يَضُرَّهُ أَجَلُهُ. وَمَنْ قَصَّرَ فِي أَيَّامِ عَمَلِهِ قَبْلَ حُصُولِ أَجَلِهِ، فَقَدْ خَسِرَ عَمَلَهُ، وَضَرَّ أَجَلَهُ. أَلَا فَٱعْمَلُوا فِي ٱلرَّغْبَـةِ كَمَا تَعْمَلُونَ فِي ٱلرَّهْبَةِ. أَلَا وَإِنّي لَمْ أَرَ كَٱلْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا، وَلَا كَٱلنَّارِ نَامَ هَارِبُها. أَلاَ وَإِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ ٱلْحَقُّ يَضُرُّهُ ٱلْبَاطِلُ. وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ ٱلْهُـدَى يَجْذُبُهُ ٱلضَّلَالُ إِلَى ٱلرَّدَى. أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ أُمِرْتُمْ بِٱلظَّعَنِ وَدُلِلْتُمْ عَلَى ٱلزَّادِ. وَإِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُم ٱتِّبَاعُ ٱلْهَوَى وَطُولُ ٱلأَمَلِ. تَزَوَّدُوا فِي ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلدُّنْيَا مَا تُحْرِزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً.

★ ★ ★

---

(١) الصَّبا والدَّبور: ريحان.

(عَنْ نَوْفٍ ٱلْبَكَالِيّ) قَالَ: رَأَيْتُ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيًّا كَرَّمَ ٱللهُ وَجْهَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ فِرَاشِهِ فَنَظَرَ إِلَى ٱلنُّجُومِ فَقَالَ: يَا نَوْفُ أَرَاقِدٌ أَنْتَ أَمْ رَامِقٌ. قُلْتُ: بَلْ رَامِقٌ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: يَا نَوْفُ طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِي ٱلدُّنْيَا ٱلرَّاغِبِينَ فِي ٱلْآخِرَةِ. أُولٰئِكَ قَوْمٌ ٱتَّخَذُوا ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا، وَتُرَابَهَا فِرَاشًا، وَمَاءَهَا طِيبًا وَٱلدِّينَ شِعَارًا، وَٱلدُّعَاءَ دِثَارًا.

(لبهاء الدين)

★ ★ ★

الراهب الجرجانيّ مع الشيخ عُمر الصينيّ

قَالَ ٱلشَّيخُ عُمَرُ: مَرَرْتُ بِرَاهِبٍ وَهُوَ فِي صَوْمَعَتِهِ فَجَرَى بَيْنِي وَبَيْنَهُ مُؤَانَسَةٌ. فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَاهِبُ لِمَنْ تَعْبُدُ. فَقَالَ: أَعْبُدُ ٱللهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْعَالَمَ بِقُدْرَتِهِ. وَأَلَّفَ نِظَامَهُ بِحِكْمَتِهِ. وفاقَتْ عَظَمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ. لَا تَبْلُغُ ٱلْأَلْسُنُ وَصْفَ قُدْرَتِهِ. وَلَا ٱلْعُقُولُ لُجَّ رَحْمَتِهِ. لَهُ ٱلشُّكْرُ عَلَى مَا نَتَقَلَّبُ فِيهِ مِن نِعْمَتِهِ ٱلَّتِي صَحَّتْ بِهَا ٱلْأَبْصَارُ. وَرَعَتْ بِهَا ٱلْأَسْمَاعُ. وَنَطَقَتْ بِهَا ٱلْأَلْسُنُ. وَسَكَنَتْ بِهَا ٱلْعُرُوقُ وَٱمْتَزَجَتْ بِهَا ٱلطَّبَائِعُ. فَقُلْتُ: يَا رَاهِبُ مَا أَفْضَلُ ٱلْحِكْمَةِ. فَقَالَ: خَوْفُ ٱللهِ. فَقُلْتُ: وَمَا أَكْمَلُ ٱلْعَقْلِ. قَالَ: مَعْرِفَةُ ٱلْإِنْسَانِ بِقُدْرَتِهِ. قُلْتُ: مَا يُعِينُ عَلَى ٱلتَّخَلُّصِ مِنَ ٱلدُّنْيَا. قَالَ: أَن تَجْعَلَ بَقِيَّةَ يَوْمِكَ ٱنْقِضَاءَ أَمَلِكَ. فَقُلْتُ: وَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَن عَقَلْتَ عَلَى نَفْسِكَ فِي هٰذِهِ ٱلصَّوْمَعَةِ. فَقَالَ: لِأَحْبِسَ هٰذَا ٱلسَّبُعَ عَنِ ٱلنَّاسِ (وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى لِسَانِهِ). قُلْتُ: مِن أَيْنَ تَعِيشُ. قَالَ: مِنْ تَدْبِيرِ ٱللَّطِيفِ ٱلْخَبِيرِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلرَّحَى وَهُوَ يَأْتِيهَا بِٱلطَّحِينِ. قُلْتُ: لِمَ لَا تَنْزِلُ إِلَيْنَا

وَتُخَالِطُنَا. فَقَالَ. لِأَنَّ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْمُوبِقَةَ بِأَسْرِهَا بَيْنَكُمْ وَٱلسَّلَامَةَ مِنْ ذٰلِكَ إِنَّما تَكُونُ فِي ٱلْوَحْدَةِ. قُلْتُ: وَكَيْفَ صَبَرْتَ عَلَى ٱلْوَحْدَةِ. فَقَالَ: لَوْ ذُقْتَ حَلَاوَةَ ٱلْوَحْدَةِ لَٱسْتَوْحَشْتَ إِلَيْهَا مِنْ نَفْسِكَ. قُلْتُ: كَيْفَ لَبِستَ ٱلسَّوَادَ. فَقَالَ: لِأَنَّ ٱلدُّنْيَا دَارُ مَأْتَمٍ وَأَهْلُهَا فِي حِدَادٍ. وَإِذَا حَزِنْتُ لَبِسْتُ ٱلسَّوَادَ. فَقُلْتُ: كَيْفَ تَذْكُرُ ٱلْمَوْتَ. فَقَالَ: مَا أَطْرِفُ طَرْفَةَ عَيْنٍ إِلاَّ ظَنَنْتُ أَنِّي مُتُّ. قُلْتُ: مَا لَنَا نَحْنُ نَكْرَهُ ٱلْمَوْتَ. فَقَالَ: لِأَنَّكُمْ عَمَّرْتُمْ دُنْيَاكُمْ وَأَخْرَبْتُمْ آخِرَتَكُمْ. فَأَنْتُمْ تَكْرَهُونَ ٱلنُّقْلَةَ مِنَ ٱلْعُمْرَانِ إِلَى ٱلْخَرَابِ. قُلْتُ: يَا رَاهِبُ عِظْنِي. فَقَالَ: أَبْلَغُ ٱلصِفَاتِ ٱلنَّظَرُ إِلَى مَحَلَّةِ ٱلْأَمْوَاتِ. وَفِي تَغْيِيرِ ٱلسَّاعَاتِ وَٱلْآجِلَاتِ. وَإِنْ شَيَّعْتَ جَنَازَةً فَكُنْ كَأَنَّكَ ٱلْمَحْمُولُ مِثْلَ ذٰلِكَ. وَلاَ تَنْسَ مَنْ لَا يَنْسَاكَ. وَأَحْسِنْ سَرِيرَتَكَ يُحْسِنِ ٱللهُ عَلَانِيَتَكَ. وَٱعْلَمْ أَنَّ مَنْ خَافَ ٱللهَ أَخَافَ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ. وَمَنْ لَمْ يَخَفِ ٱللهَ خَافَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَٱطْلُبِ ٱلْعِلْمَ لِتَعْمَلَ بِهِ وَلاَ تَطْلُبْهُ لِلتَّبَاهِي أَوْ تُمَارِيَ بِهِ ٱلسُّفَهَاءَ. وَإِيَّاكَ وَٱلْأَهْوَاءَ فَإِنَّهَا مُوبِقَةٌ، وَٱلْهَرَبَ ٱلْهَرَبَ مِنَ ٱلْجَهْلِ، وَٱلْهَرَبَ ٱلْهَرَبَ مِمَّنْ يَمْدَحُ ٱلْحَسَنَاتِ فَيَتَجَنَّبُهَا وَيَذُمُّ ٱلسَّيِّئَاتِ فَيَرْتَكِبُهَا. وَلَا تَشْرَبِ ٱلْمُسْكِرَ عَاجِلَتُهُ غَرَامَةٌ. وَعَاقِبَتُه نَدَامَةٌ. وَلَا تُجَالِسْ مَنْ يُشْغِلُكَ بِٱلْكَلَامِ وَيُزَيِّنُ لَكَ ٱلْخَطَأَ وَيُوقِعُكَ فِي هٰذِهِ ٱلْغُمُومِ. وَيَتَبَرَّأُ مِنْكَ وَيَنْقَلِبُ عَلَيْكَ. وَلَا تَتَشَبَّهْ فِي طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ وَلِبَاسِكَ بِٱلْعُظَمَاءِ وَلاَ فِي مَشْيِكَ بِٱلْجَبَابِرَةِ. وَكُنْ مِمَّنْ يُرْجَى خَيْرُهُ. وَلاَ تَكُن مِمَّنْ يُخَافُ شَرُّهُ. وَٱعْلَمْ أَنَّ مَنْ أَحَبَّهُ ٱللهُ ٱبْتَلاهُ. وَمَنْ صَبَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ. وَإِذَا ٱعْتَلَلْتَ فَأَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ ٱللهِ وَحَمْدِهِ وَشُكْرِهِ. وَإِيَّاكَ وَٱلنَّمِيمَةَ فَإِنَّهَا تَزْرَعُ فِي ٱلْقُلُوبِ ٱلضَّغَائِنَ وَتُفَرِّقُ بَيْنَ

ٱلْمُحِبِّينَ. وَٱنْظُرْ مَا ٱسْتَحْسَنْتَهُ مِنْ غَيْرِكَ فَٱمْتَثِلْهُ لِنَفْسِكَ. وَمَا أَنْكَرْتَهُ مِنْ غَيْرِكَ فَتَجَنَّبْهُ. وَٱرْضَ لِلنَّاسِ مَا تَرْضَاهُ لِنَفْسِكَ. فَإِنَّهُ كَمَالُ ٱلْوِصَالِ وَٱلصَّلَاحِ فِي ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا. وَقَالَ: إِنِّي أَسْتَوْدِعُكَ للهِ وَأَقْرِي عَلَيْكَ ٱلسَّلَامَ.

حدّ الزهد

قِيلَ لِلزُّهْرِيّ مَا ٱلزُّهْدُ. قَالَ: أَمَا أَنَّهُ لَيْسَ تَشْعِيثَ ٱللِّمَّةِ وَلاَ قَشَفَ ٱلْهَيْئَةِ. وَلٰكِنَّهُ صَرْفُ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلشَّهْوَةِ. وَقِيلَ لِآخَرَ: مَا ٱلزُّهْدُ فِي ٱلدُّنْيَا؟ قَالَ: أَنْ لَا يَغْلِبَ ٱلْحَرَامُ صَبْرَكَ. وَلَا ٱلْحَلاَلُ شُكْرَكَ. وَقِيلَ لِمُحَمَّدِ بِنْ وَاسِعٍ: مَنْ أَزْهَدُ ٱلنَّاسِ فِي ٱلدُّنْيا. قَالَ: مَنْ لَا يُبَالِي بِيَدِ مَنْ كَانَتِ ٱلدُّنْيَا. وَقِيلَ لِلْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ: مَنْ أَزْهَدُ ٱلنَّاسِ فِي ٱلدُّنْيَا. قَالَ: مَنْ لَمْ يَطْلُبِ ٱلْمَفْقُودَ حَتَّى يَفْقِدَ ٱلْمَوْجُودَ.

★ ★ ★

ذلّة الدنيا

قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: ٱلدُّنْيَا كَٱلْمَاءِ ٱلْمَالِحِ كُلَّمَا ٱزْدَادَ صَاحِبُهُ شُرْباً ٱزْدَادَ عَطَشاً. وَكَٱلْكَأْسِ مِنَ ٱلْعَسَلِ فِي أَسْفَلِهِ ٱلسُّمُّ فَلِلذَّائِقِ مِنْهُ حَلاَوَةٌ عَاجِلَةٌ وَفِي أَسْفَلِهِ ٱلْمَوْتُ ٱلزُّعَافُ. وَكَأَحْلاَمِ ٱلنَّائِمِ ٱلَّتِي تُفْرِحُهُ فِي مَنَامِهِ فَإِذَا ٱسْتَيْقَظَ

ٱنْقَطَعَ ٱلْفَرَحُ. وَكَٱلْبَرْقِ ٱلَّذِي يُضِيءُ قَلِيلاً وَيَذْهَبُ وَشِيكاً وَيَبْقَى رَاجِيهِ فِي ٱلظَّلَامِ مُقِيماً. وكَدُودَةِ ٱلإِبْرِيسَمِ ٱلَّتِي لَا يَزْدَادُ ٱلْإِبْرِيسَمُ عَلَى نَفْسِهَا لفًّا إِلَّا ٱزْدَادَتْ مِنَ ٱلْخُرُوجِ بُعْداً وَفِيهِ قِيلَ:

كَـدُودٌ كَـدُودِ ٱلْقَـزِّ يَنْسُـجُ دَائِمـاً　　وَيَهْلِكُ غَمًّا وَسْطَ مَـا هُـو نَـاسِجُـهْ

★ ★ ★

قَالَ حَكِيمٌ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: تُرِيدُ أَنْ أُرِيَكَ ٱلدُّنْيَا. فَقَالَ: نعَمْ. فَأَخَذَ بِيَدِهِ وٱنْطَلَقَ حَتَّى وَقَفَ بِهِ عَلَى مَزْبَلَةٍ فِيهَا رُؤُوسُ ٱلْآدَمِيِّينَ مُلْقَاةٌ. وَبَقَايَا عِظَامٍ نَخِرَةٍ وَخِرَقٍ قَدْ تَمَزَّقَتْ وَتَلَوَّثَتْ بِنَجَاسَاتٍ. فَقَال: هٰذِهِ رُؤُوسُ ٱلنَّاسِ ٱلَّتِي تَرَاهَا كَانَتْ مِثْلَ رُؤُوسِكُمْ كَانَتْ مَمْلُوءَةً مِنَ ٱلْحِرْصِ وَٱلاْجْتِهَادِ عَلَى جَمْـعِ ٱلـدُّنْيَـا. وَكَانُوا يَرْجُونَ مِنْ طُولِ ٱلْأَعْمَارِ مَا تَرْجُونَ. وَكَانُوا يَجِدُّونَ فِي جَمْعِ ٱلْمَالِ وَعِمَارَةِ ٱلدُّنْيَا كَمَا تَجِدُّونَ. فَٱلْيَوْمَ تَعَرَّتْ عِظَامُهُمْ وَتَلَاشَتْ أَجْسَامُهُمْ كَمَا تَرَى. وَهٰذِهِ ٱلْخِرَقُ كَانَتْ أَثْوابَهُمْ ٱلَّتِي كَانُوا يَتَزَيَّنُونَ بِهَا عِنْدَ التَّجَمُّلِ وَقْتَ ٱلرُّعُونَةِ وَٱلتَّجَمُّلِ وَٱلتَّزَيُّنِ. فَٱليَوْمَ قَدْ أَلْقَتْهَا ٱلرِّيحُ فِي ٱلنَّجَاسَاتِ. وَهٰذِهِ عِظَامُ دَوَابِهِمِ ٱلَّتِي كَانُوا يَطُوفُونَ أَقْطَارَ ٱلْأَرْضِ عَلَى ظُهُورِها. وَهٰذِهِ ٱلنَّجَاسَاتُ كَانَتْ أَطْعِمَتَهُمُ ٱللَّذِيذَةَ ٱلَّتِي كَانُوا يَحْتَالونَ فِي تَحْصِيلِهَا لَا يَقْرَبُهَا أَحَدٌ مِنْ نَتَنِها. فَهٰذِهِ جُمْلَةُ أَحْوَالِ ٱلدُّنْيَا كَمَا تُشَاهِدُ وَتَرَى. فَمَنْ أَرَادَ أَن يَبْكِي عَلَى ٱلدُّنْيَا فَلْيَبْكِ فَإِنَّهَا مَوْضِعُ ٱلْبُكاءِ. (قَالَ) فَبَكَى جَمَاعَةُ ٱلْحَاضِرِينَ.

★ ★ ★

وَللهِ ٱلْحَرِيرِيُّ حَيْثُ قَالَ:

يَا طَالِبَ ٱلدُّنْيَا ٱلدَّنِيَّةِ إِنَّهَا شَرَكُ ٱلرَّدَى وَقَرَارَةُ ٱلْأَكْدَارِ
دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكَتْ فِي يَوْمِهَا أَبْكَتْ غَداً تَبًّا لَهَا مِنْ دَارِ
غَارَاتُهَا لَا تَنْقَضِي وَأَسِيرُهَا لَا يُفْتَدَى بِجَلَائِلِ ٱلْأَخْطَارِ
فَاقْطَعْ عَلَائِقَ حُبِّهَا وَطِلَابِهَا تَلْقَ ٱلْهُدَى وَرَفَاهَةَ ٱلْأَسْرَارِ

* * *

مَثَلُ أَهْلِ ٱلدُّنْيَا وَٱشْتِغَالِهِمْ وَٱهْتِمَامِهِمْ بِأَحْوَالِهَا وَنِسْيَانِ ٱلْآخِرَةِ وَإِهْمَالِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ رَكِبُوا مَرْكَبًا فِي ٱلْبَحْرِ فَعَدَلُوا إِلَى جَزِيرَةٍ لِأَجْلِ قَضَاءِ ٱلْحَاجَةِ. فَنَزَلُوا إِلَى ٱلْجَزِيرَةِ وَٱلْمَلَّاحُ يُنَادِيهِمْ لَا تُطِيلُوا ٱلْمُكْثَ لِئَلَّا يَفُوتَ ٱلْوَقْتُ وَلَا تَشْتَغِلوا بِغَيْرِ ٱلصَّلَاةِ فَإِنَّ ٱلْمَرْكَبَ سَائِرٌ. فَمَضَوْا وَتَفَرَّقُوا فِي ٱلْجَزِيرَةِ وَٱنْتَشَرُوا فِي نَوَاحِيهَا. فَٱلْعُقَلَاءُ مِنْهُمْ لَمْ يَمْكُثُوا وَعَادُوا إِلَى ٱلْمَرْكَبِ. فَوَجَدُوا ٱلْأَمَاكِنَ خَالِيَةً فَجَلَسُوا فِي أَطْهَرِ أَمَاكِنِهِ وَأَوْفَقِهَا، وَأَطْيَبِ مَوَاضِعِهِ وَأَرْفَقِها. وَمِنْهُمْ قَوْمٌ نَظَرُوا إِلَى عَجَائِبِ تِلْكَ ٱلْجَزِيرَةِ. وَوَقَفُوا يَتَنَزَّهُونَ فِي زَهْرِها وَأَثْمارِها، وَرَوْضِهَا وَأَشْجَارِهَا، وَيَسْمَعُونَ تَرَنُّمَ أَطْيَارِهَا، وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْ حَصْبَائِهَا ٱلْمُلَوَّنَةِ وَأَحْجَارِهَا. فَلَمَّا عَادُوا إِلَى ٱلْمَرْكَبِ لَمْ يَجِدُوا فِيهِ مَوْضِعًا وَلَا رَأَوْا مُتَّسَعاً. فَقَعَدُوا فِي أَضْيَقِ مَوَاضِعِهِ وَأَظْلَمِهَا. وَمِنْهُمْ قَوْمٌ وَقَفُوا مَعَ عَجَائِبِ تِلْكَ ٱلْجَزِيرَةِ فَتَحَيَّرُوا، وَفِي ٱلرُّجُوعِ لَمْ يَتَفَكَّرُوا، حَتَّى سَارَ ٱلْمَرْكَبُ فَبَعُدُوا عَنْهُ وَٱنْقَطَعُوا وَفِي أَمَاكِنِهِمْ تَخَلَّفُوا. إِذْ لَمْ يُصْغُوا إِلَى ٱلْمُنَادِي وَلَمْ يَسْمَعُوا. فَمِنْهُمْ مَنْ هَلَكَ مِنَ ٱلْجُوعِ وَمِنْهُمْ مَنْ أَكَلَتْهُ ٱلسِّبَاعُ، وَنَهَشَتْهُ ٱلضِّبَاعُ. فَٱلْقَوْمُ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ هُمُ

ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْمُتَّقُونَ. وَٱلْقَوْمُ ٱلْمُتَخَلِّفُونَ ٱلْهَالِكُونَ هُمُ ٱلَّذِينَ نَسُوا ٱللهَ وَنَسُوا ٱلْآخِرَةَ وَسَلَّمُوا كُلِّيَتَهُمْ إِلَى ٱلدُّنْيَا وَرَكَنُوا إِلَيْهَا وَٱسْتَحَبُّوا ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ. وَأَمَّا ٱلْجَمَاعَةُ ٱلْمُتَوَسِّطُونَ فَهُمُ ٱلْعُصَاةُ ٱلَّذِينَ حَفِظُوا أَصْلَ ٱلْإِيمَانِ وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَكُفُّوا يَدَهُمْ عَنِ ٱلدُّنْيَا. فَمِنْهُمْ مَنْ تَمَتَّعَ بِغِنَاهُ وَنِعْمَتِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ تَمَتَّعَ مَعَ فَقْرِهِ وَحَاجَتِهِ. إِلَى أَنْ ثَقُلَتْ أَوْزَارُهُمْ. وَكَثُرَتْ أَوْسَاخُهُمْ وَآصَارُهُمْ.

(للغزالي)

★ ★ ★

لَمَّا حَضَرَتْ هِشَامَ بْنَ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلْوَفَاةُ نَظَرَ إِلَى أَهْلِهِ يَبْكُون حَوْلَهُ فَقَالَ: جَادَ لَكُمْ هِشَامٌ بِٱلدُّنْيَا وَجُدتُمْ لَهُ بِٱلْبُكَاءِ. وَتَرَكَ لَكُمْ مَا جَمَعَ وَتَرَكْتُمْ عَلَيْهِ مَا حَمَلَ. مَا أَعْظَمَ مُنْقَلَبَ هِشَامٍ إِنْ لَمْ يَغْفِرِ ٱللهُ لَهُ.

(للطرطوشي)

★ ★ ★

زوال الدنيا

اِعْلَمْ أَنَّ ٱلدُّنْيَا مَنْزِلَةٌ وَلَيْسَتْ بِدَارِ قَرَارٍ وَٱلْإِنْسَانَ فِيهَا عَلَى صُورَةِ مُسَافِرٍ. فَأَوَّلُ مَنَازِلِهِ بَطْنُ أُمِّهِ وَآخِرُ مَنَازِلِهِ لَحْدُ قَبْرِهِ. وَإِنَّمَا وَطَنُهُ وَقَرَارُهُ وَمُكْثُهُ وَٱسْتِقْرَارُهُ بَعْدَهَا. فَكُلُّ سَنَةٍ تَنْقَضِي مِنْ عُمْرِ ٱلْإِنْسَانِ كَٱلْمَرْحَلَةِ. وَكُلُّ شَهْرٍ يَنْقَضِي مِنْهُ كَٱسْتِرَاحَةِ ٱلْمُسَافِرِ فِي سَفَرِهِ. وَكُلُّ أُسْبُوعٍ فَكَقَرْيَةٍ تَلْقَاهُ فِي طَرِيقِهِ.

وَكُلُّ يَوْمٍ فَكَفَرْسَخٍ يَقْطَعُهُ. وَكُلُّ نَفَسٍ فَكَخُطْوَةٍ يَخْطُوهَا. وَبِقَدْرِ كُلِّ نَفَسٍ يَتَنَفَّسُهُ يَقْرُبُ مِنَ ٱلْآخِرَةِ. وَهٰذِهِ ٱلدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ فَمَنْ عَبَرَ ٱلْقَنْطَرَةَ وَٱشْتَغَلَ بِعِمَارَتِهَا فَنِيَ فِيهَا زَمَانُهُ. وَأُنْسِيَ ٱلْمَنْزِلَةَ ٱلَّتِي إِلَيْهَا مَصِيرُهُ وَهِيَ مَكَانُهُ. وَكَانَ جَاهِلاً غَيْرَ عَاقِلٍ. وَإِنَّمَا ٱلْعَاقِلُ ٱلَّذِي لَا يَشْتَغِلُ فِي دُنْيَاهُ إِلَّا بِإِعْدَادِ زَادِهِ لِمَعَادِهِ. وَيَكْتَفِي مِنْهَا بِقَدْرِ حَاجَتِهِ. وَمَهْمَا جَمَعَهُ مِنْهَا فَوْقَ كِفَايَتِهِ كَانَ سُمًّا قَاتِلاً. وَتَمَنَّى أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ خَزَائِنِهِ وَسَائِرُ ذَخَائِرِهِ فَانِيَةً رَمَاداً وَتُرَاباً لَا فِضَّةً وَذَهَبًا. وَلَوْ جَمَعَ مَهْمَا جَمَعَ فَإِنَّما يُصِيبُهُ مَا يَأْكُلُهُ وَيَلْبَسُهُ لاَ سِوَاهُ. وَجَمِيعُ مَا يُخَلِّفُهُ يَكُونُ حَسْرَةً وَنَدَامَةً وَيَصْعُبُ عَلَيْهِ نَزْعُهُ عِنْدَ مَوْتِهِ. فَحَلاَلُهَا حِسَابٌ. وَحَرَامُهَا عَذَابٌ. إِنْ كَانَ قَدْ جَمَعَ ٱلْمَالَ مِنْ حَلاَلٍ طُلِبَ مِنْهُ ٱلْحِسَابُ. وَإِنْ كَانَ قَدْ جَمَعَهُ مِنْ حَرَامٍ أَوْجَبَ عَلَيْهِ ٱلْعِقَابَ. وَكَانَ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ حَسْرَةِ حُلُولِ ٱلْعَذَابِ بِهِ فِي حُفْرَتِهِ وَآخِرَتِهِ. وَٱعْلَمْ أَنَّ رَاحَةَ ٱلدُّنْيَا أَيَّامٌ قَلاَئِلُ وَأَكْثَرُهَا مُنَغَّصٌ بِٱلتَّعَبِ. وَمَشُوبٌ بِٱلنَّصَبِ. وَبِسَبَبِهَا تَفُوتُ رَاحَةُ ٱلدُّنْيَا ٱلْآخِرَةِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلدَّائِمَةُ ٱلْبَاقِيَةُ وَٱلْمُلْكُ ٱلَّذِي لَا يَفْنَى وَلَا نِهَايَةَ لَهُ. فَسَهْلٌ عَلَى ٱلْعَاقِلِ أَنْ يَصْبِرَ فِي هٰذِهِ ٱلْأَيَّامِ ٱلْقَلاَئِلِ لِيَنَالَ رَاحَةً دَائِمَةً بِلاَ ٱنْقِضَاءٍ. وَٱلدُّنْيَا لَيْسَتْ بِشَيْءٍ فِي جَنْبِ ٱلْآخِرَةِ وَلاَ نِسْبَةَ بَيْنَهُمَا لِأَنَّ ٱلْآخِرَةَ لَا نِهَايَةَ لَهَا وَلاَ يُدْرِكُ ٱلْوَهْمُ طُولَهَا

(للغزالي)

★ ★ ★

لَمَّا بَنَى ٱلْمَأْمُونُ بْنُ ذِي ٱلنُّونِ ، وَكَانَ مِنْ مُلُوكِ ٱلْأَنْدَلُسِ ، قَصْرَهُ وَأَنْفَقَ فِي بِنَائِهِ بُيُوتَ أَمْوَالِهِ فَجَاءَ عَلَى أَكْمَلِ بُنْيَانٍ فِي ٱلْأَرْضِ . وَكَانَ مِنْ عَجَائِبِهِ أَنَّهُ صَنَعَ فِيهِ بِرْكَةَ مَاءٍ كَأَنَّهَا بُحَيْرَةٌ. وَبَنَى فِي وَسَطِهَا قُبَّةً، وَسِيقَ ٱلْمَاءُ مِنْ تَحْتِ

ٱلْأَرْضِ حَتَّى عَلاَ إِلَى رَأْسِ ٱلْقُبَّةِ عَلَى تَدْبِيرٍ قَدْ أَحْكَمَهُ ٱلْمُهَنْدِسُونَ. وَكَانَ ٱلْماءُ يَنْزِلُ مِنْ أَعْلَى ٱلْقُبَّةِ حَوَالَيْهَا مُحِيطاً بِهَا مُتَّصلاً بَعْضُهُ بِبَعْضٍ. فَكَانَتِ ٱلْقُبَّةُ فِي غِلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ سَكْباً لاَ يَفْتُرُ وَٱلْمَأْمُونُ قَاعِدٌ فِيهَا. فَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ بَيْنَمَا هُوَ نائِمٌ إِذْ سَمِعَ مُنْشِداً يُنْشِدُ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتَ:

أَتَبْنِي بِنَاءَ ٱلْخَالِدِينَ وَإِنَّمَا ... مُقَامُكَ فِيهَا لَوْ عَقَلْتَ قَلِيلُ
لَقَدْ كَانَ فِي ظِلِّ ٱلْأَرَاكِ[1] كِفَايَةٌ ... لِمَنْ كَانَ يَوْماً يَقْتَضِيهِ رَحِيلُ

فَلَمْ يَلْبَثْ بَعْدَهَا إِلاَّ يَسِيراً حَتَّى قَضَى نَحْبَهُ

* * *

قَالَ بَعْضُ ٱلْأَكَابِرِ فِي مَرَضٍ

نَمْضِي كَمَا مَضَتِ ٱلْقَبَائِلُ قَبْلَنَا ... لَسْنَا بِأَوَّلِ مَنْ دَعَاهُ ٱلدَّاعِي
تَبْقَى ٱلنُّجُومُ دَوَائِرٌ أَفْلاَكُهَا ... وَٱلْأَرْضُ فِيهَا كُلَّ يَوْمٍ نَاعِ
وَزَخَارِفُ ٱلدُّنْيَا يَجُوزُ خِدَاعُهَا ... أَبَداً عَلَى ٱلْأَبْصَارِ وَٱلْأَسْمَاعِ

* * *

خطبة أبي الدرداء في أهل الشام

لَمَّا دَخَلَ أَبُو ٱلدَّرْدَاءِ ٱلشَّامَ قَالَ: يَا أَهْلَ ٱلشَّامِ ٱسْمَعُوا قَوْلَ أَخٍ لَكُمْ نَاصِحٍ. فَٱجْتَمَعُوا عَلَيْهِ فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكُمْ تَبْنُونَ مَا لاَ تَسْكُنُونَ. وَتَجْمَعُونَ مَا لاَ

---

(١) الأراك: شجر ترعاه الماشية، له تمر كعناقيد العنب.

تأكُلُونَ. وتَقُولُونَ مَا لاَ تُدرِكُونَ. إنَّ ٱلَّذِينَ كَانُوا قَبْلَكُمْ بَنَوا مَشِيداً. وَأَمَّلُوا بَعِيداً. وَجَمَعُوا كَثِيراً. فَأَضْحى أَمَلُهُمْ غُرُورًا. وَجَمْعُهُمْ بُورًا. وَمَسَاكِنُهُمْ قُبُورًا.

★ ★ ★

ورَوَى ٱلْجَاحِظُ قَالَ: وُجِدَ مَكْتُوباً عَلَى حَجَرٍ: ابْنَ آدَمَ! لَوْ رَأَيْتَ يَسِيرَ مَا بَقِيَ مِنْ أَجَلِكَ، لَزَهَدتَ فِي طُولِ مَا تَرْجُو مِنْ أَمَلِكَ، وَلَرَغِبْتَ فِي ٱلزِّيَادَةِ مِن عَمَلِكَ، وَلَقَصَّرْتَ عَنْ حِرْصِكَ وَمَيلِكَ. وَإِنَّمَا يَلْقَاكَ غَداً نَدَمُكَ. وَقَدْ زَلَّتْ بِكَ قَدَمُكَ. وَأَسْلَمَكَ أَهْلُكَ وَحَشَمُكَ. وتَبَرَّأَ مِنكَ ٱلْقَرِيبُ، وَٱنْصَرَفَ عَنْكَ ٱلْحَبِيبُ. فَلاَ أَنْتَ فِي عَمَلِكَ زَائِدٌ، وَلَا إِلَى أَهْلِكَ عَائِدٌ.

(للطرطوشي)

★ ★ ★

قَالَ فَخْرُ ٱلدِّينِ ٱلْبَكْرِيُّ:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ ٱلْعُقُولِ عِقَالُ ... وَأَكْثَرُ سَعْيِ ٱلْعَالَمِينَ ضَلاَلُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ عَنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا
وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ رِجَالٍ وَدَوْلَةٍ ... فَبَادُوا جَمِيعاً مُسْرِعِينَ وَزَالُوا

★ ★ ★

القسم الثاني

في التصوّف

التصوّف

تعريفه:

التصوّف هو التماس الحقّ عن طريق تطهير النفس التي تلوّثت بأدران المادّة عند حلولها في الجسد، بعد أن كانت طاهرة شريفة، وإعدادها لقبوله بالإلهام الإلهي. ولا سبيل إلى عودتها طاهرة إلاّ بقهر الجسد وإذلاله، وحرمانه من مشتهياته ورغباته الدنيويّة، وذلك بالانقطاع إلى العبادة، وممارسة الصلاة، والتقشّف. فإذا تمّ لها ذلك سمت نحو الله، واقتبست منه المعرفة الحقيقيّة، وسلكت طريق الحقّ.

أصل التسمية:

اختلف الباحثون في سبب تسميته، فمنهم من قال: **من الصفاء**، لأنّ أربابه عرفوا بصفاء القلب، والتخلّي عن السعادة الدنيويّة طمعاً بالاتحاد الكامل بالله. **ومن الصفة**، وهي السقيفة التي يأوي إليها الفقراء المتعبّدون خارج مسجد المدينة. **ومن الصوف**، كما قال ابن خلدون، والمستشرقان نولدكه ونيكلسن «فالصوفيّ هو الذي يرتدي غليظ الصوف»، والصّوف لباس المتعبّدين والنسّاك، وقد اتّخذوه لقهر النفس، وإيذاء الجسد، فغدا شعاراً لهم. وقال السهروردي في كتابه «عوارف المعارف»: وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق، لأنّه يقال: تصوّف إذا لبس الصوف، كما يقال: تقمّص إذا لبس القميص... فنسبوا

إلى ظاهر اللبسة، وكان ذلك أبين في الإشارة إليهم»[1].

منابع التصوّف:

اختلفت الآراء حول منابع التصوّف من حيث أصالتها في الإسلام، أو كونها دخيلة عليه، وغريبة عنه. منهم من قال: إنّ بذور التصوّف موجودة في الإسلام، ومنهم من قال: إنّها غريبة عنه؛ وقال بعضهم الآخر: إنّه نشأ متأثّراً بالأصول الإسلاميّة، ثمّ ابتعد عن الإسلام، فوقع المتأخّرون من المتصوّفين بالمغالاة والتطرّف. ولكنّ هذا الرأي لم يجد أذنًا صاغية عند بعضهم الآخر الذي قال: إنّ التصوّف نشأ غريباً عن الإسلام، ثمّ عاد إلى أحضانه، نافيًا عنه ما لا يتلاءم مع جوهر العقيدة.

تأثّر التصوّف بالعوامل الإسلاميّة:

إن أهم العوامل الإسلاميّة التي أثّرت في التصوّف هي:

أ ـ القرآن، وهو المصدر الرئيسي للعقيدة الإسلامية، إذ نجد فيه آيات كثيرة تدعو المؤمنين إلى ترك الحياة الدنيا، والاهتمام بالآخرة، كقوله تعالى: ﴿**يا أيّها الَّذينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أمْوَالُكُمْ ولا أولادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فأولٰئِكَ هُمُ الخاسِرُون**﴾[2] وفيه آيات تدعو إلى الذكر والتسبيح، كقوله تعالى: ﴿**واذْكُرْ رَبَّكَ كثيرًا وَسَبِّحْ بالعشِيِّ والأبْكارِ**﴾[3] وإلى الحبّ والقرب والرّضى، كقوله تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ويُحبُّونه**﴾[4] و﴿**نحن**

---

(١) عوارف المعارف، على «هامش إحياء علوم الدين» للغزالي. طبعة القاهرة، ج١ ص٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٢) المنافقون: ٩.

(٣) آل عمران: ٤١.

(٤) المائدة: ٥٤.

﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾[1] و﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضوا عنه﴾[2]. كلّ هذه الأمور اتّخذها المتصوّفون طرائق بنوا عليها مذهبهم، وبخاصة نظرتهم في الحلول ووحدة الوجود، كقوله تعالى: ﴿هو الأوّلُ والآخرُ والظاهِرُ والباطِنُ وهو بكلِّ شيءٍ عليم﴾[3] ﴿ولله المَشْرِقُ والمَغْرِبُ فأَيْنَما تُوَلّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[4]، ووحدة الأديان مع تعدّد مظاهرها، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أمَةً واحِدَةً﴾[5].

وفي الواقع أنّ القرآن يجمع بين الدعوة إلى العبادة، والدعوة إلى العمل، مشرّعًا أسس الحياتين: الدنيا والآخرة. فالإسلام إذن لا يحبّذ الإعراض التام عن الدنيا، وإنّما ينهى عن الإسراف في التقشّف، ويدعو إلى القيام بالواجبات الاجتماعيّة، كقوله تعالى: ﴿فإذا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فانْتَشِرُوا في الأَرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾[6] و﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا﴾[7] كما أنّنا نجد أنّه يحلّل خيرات الدنيا في قوله: ﴿يا أيّها الَّذينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أحلَّ الله لكم وَلَا تَعْتَدُوا إنّ الله لا يُحِبُّ المُعْتَدِين﴾[8].

ب ـ سيرة الرسول: وكذلك نجد في سيرة الرسول (ﷺ) نزعة الإعراض

---

(١) ق: ١٦

(٢) الأعراف: ٢٠٤.

(٣) الحديد: ٣.

(٤) البقرة: ١١٥.

(٥) المائدة: ٤٨.

(٦) الجمعة: ١٠.

(٧) القصص: ٧٧.

(٨) المائدة: ٨٧.

عن الدنيا، ونزعة السعي وراءها، فإنّنا نراه يحثّ على العبادة والتقوى، ولكنّه لم يَنْهَ عن لذائذ الحياة المشروعة، كقوله (ﷺ): «ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه» أو قوله: «الطاعم الشاكر خير من الصوّام الزاهد» كما نهى عن العزوبة بقوله: «لكلّ نبيّ رهبانيّة، ورهبانيّة هذه الأمّة الجهاد في سبيل الله» وروي عنه أنّه قال لرجل مال إليها: «فأنت إذن من إخوان الشياطين، إن كنت من رهبان النصارى فالحق بهم، وإن كنت منّا فمن سنّتنا النكاح». وروي أيضًا: «إنّما حبّب إليّ من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرّة عيني في الصلاة».

وكذلك في عهد الصحابة، فإننا نجد أمثلة واضحة لهاتين النزعتين (نزعة الإعراض عن الدنيا ونزعة السعي وراءها). فهناك تيار يساعد على تنمية وتقوية روح الزهد في الإسلام، وبخاصة في العراق، حيث ظهرت طائفة «العباد» الذين أعرضوا عن الدنيا طمعًا في الآخرة. ولعل سبب ظهور هذه الطائفة هو الخصومات السياسيّة التي قامت حول الخلافة، وأدّت إلى الفتن والحروب بين المسلمين، كمعركة الجمل وصفّين، بعد أن كان المسلمون في العهد الراشدي متّحدين، وخلفاؤهم متقشّفين لا تستهويهم مفاتن الدنيا وزخرف الحياة. أمّا في العهدين: الأموي والعباسي، فقد انهمكت الخلافة في الملذّات مما أدّى إلى ردّ فعل عند الورعين فراحوا ينشدون المثل العليا الإسلاميّة في الزهد والإعراض عن الدنيا. وقد تأجّجت حرارة الإيمان في نفوسهم بقدر ما ازداد العبث والمجون عند سواهم، فأصبحت المدنيّة العباسيّة: «مسجدًا وحانة، وقارئًا وزامرًا، ومجتهدًا يرقب الفجر ومصطبحًا في الحدائق، وساهرًا في تجهّد، وساهرًا في طرب، وتخمة من غنى، ومسكنة في إملاق، وشكًّا في دين، وإيمانًا في يقين. كلّ هذا كان في العصر العباسي، وكلّ هذا كان كثيرًا»[1].

والجدير بالذكر أنّ أعضاء تلك الطائفة لا يعتبرون متصوّفين بل زُهّادًا، لأنّ

---

(١) أحمد أمين. ضحى الإسلام. ج١، ص ١٦٠.

الزهد سلوك خاص، والتصوّف فلسفة دينيّة، ونظرة خاصّة في الحياة. فالصوفيّة كما يقول ابن خلدون «هي من العلوم الشرعيّة الحادثة في الملّة، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة». وقال السهروردي في كتابه عوارف المعارف: «التصوّف غير الزهد؛ فالتصوّف اسم جامع لمعاني الفقر ومعاني الزهد مع مزيد أوصاف وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفيًّا، وإن كان زاهدًا وفقيرًا»[1].

أمّا عبداللطيف الطيباوي فقد أشار في كتابه «التصوّف الإسلامي»[2] إلى الفروقات بين الزهد والتصوّف، منها:

أ ـ **الفرق في الغاية**: فالزاهد يترك الدنيا طمعًا في الآخرة. أمّا المتصوّف فيهدف إلى الاتّصال بالله في هذه الدنيا.

ب ـ **الفرق في الفكرة**: فالزاهد يرهب خوف الله وبطشه، والصوفي يطمئنّ إلى رحمته ولطفه وكرمه.

ولكنّ هذه النزعة أخذت تتّسع وتتطوّر بسبب اختلاط العرب بالأعاجم، وما رافق ذلك من اطّلاعات على آراء دينيّة وفلسفيّة، تتعلّق بحقيقة النفس الإنسانيّة ومصيرها، وما دار حول هذا الأمر من جدال؛ كلّ هذا كان يدفع إلى التأمّل الروحي، فتطوّر الزهد على نحو جديد، وتحوّل إلى مذهب فلسفي له طريقته ونظامه. ومن أهمّ المنابع التي استقى منها التصوّف العربي عناصره بالإضافة إلى العامل الإسلامي نذكر:

العامل المسيحيّ:

إنّ أهمّ النظريات التي أخذها الصوفيون عن المسيحيّة هي نظريّة «الحبّ

(١) عوارف المعارف. على «هامش إحياء علوم الدين» ج١، ص٢٨٣.

(٢) التصوّف الإسلامي العربي. ص ٢٦.

الإلهي». فقد كانت نظرة الزاهدين إلى الله نظرة يملأها الخوف والرهبة، غير أنّ المتصوّفين نقلوا شعور الخوف من الله إلى شعور بمحبّته، وذلك بتأثير التعليم المسيحي. ولعلّ هيام الصوفي بحبّ الله يعتبر أول خطوة في ابتعاد التصوّف عن الزهد، وتخطّيه إلى حدود الفلسفة. فالحبّ الصوفي هو انعتاق من المادة، وتطلّع إلى سحر العالم العلوي... والمحبوب عنده هو الله، وحبّه لا حدود له، كما تقول رابعة العدوية:

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ: حُبَّ الهَوَى ... وَحُبًّا لأنَّكَ أهْلٌ لذاكا

فأمّا الذي هو حُبُّ الهَوَى ... فَشُغْلي بِذِكْرِكَ عن سِوَاكا

وأمّا الذي أنتَ أهْلٌ لَهُ ... فَكَشْفُكَ لِلْحُجْبِ حتّى أراكا

فلا الحَمْدُ في ذا وَلاَ ذَاكَ لي ... ولٰكِنْ لَكَ الحَمْدُ في ذا وذاكا

كما أنّ ابن الفارض يتمثّل محبوبه في كل ما حوله من سحر وجمال، ونغم، ومسارح للغزلان...

تَرَاهُ إنْ غابَ عَنّي كُلّ جارحةٍ ... في كلّ مَعْنًى لَطِيفٍ رائِقٍ بَهِجِ

وفي نَغْمةِ العُودِ والنايِ الرخيمِ إذا ... تآلفا بَيْنَ ألْحانٍ مِنَ الهَزَجِ

وفي مَسَارِحِ غِزْلاَنِ الخَمَائِلِ في ... بَرْدِ الأصَائِلِ والإصْبَاحِ في البَلَجِ

لَمْ أدْرِ ما غُرْبَةُ الأوطانِ وهو معي ... وخَاطِرِي أيْنَ كنّا غَيْرُ مُنْزَعِجِ

وإلى جانب «الحب الالهي»، فقد تأثّر الصوفيّون بـ «التوكّل المطلق على الله»، إذ جاء في إنجيل متى: «لا تهتمّوا لأنْفُسِكم بما تأكلون، ولا لأجسادكم بما تلبسون... انظروا إلى طير السماء، فإنّها لا تزرع، ولا تحصد، ولا تخزن في الأهراء، وأبوكم السماوي يقوتها، أفَلَسْتم أنتم أفضل منها»؟[1] وهذا التوكّل جعله

(١) متى ٦: ٢٥ - ٢٦.

المتصوّفون أحد مقاماتهم المهمّة، من بلغه حصل على الطمأنينة النفسيّة.

وكذلك أخذ المتصوّفون عن رهبان النصارى لباس الصوف، وهو من علامات الفقر والزهد في المسيحيّة، وبالغوا في الاقتداء بهم، حتّى إنّ بعضهم آثر العزوبيّة على الزواج بالرغم ما في ذلك من نقض لتعاليم الإسلام. كما تأثّروا بنظامهم، ولعلّ ما جاء في القرآن من إطراء للمسيحيّة ساعد على أن يقتبس الصوفيّون كثيرًا من نظام المسيحيّة: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذلك بأنّ منهم قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1]

العامل الهنديّ:

وإنّ جميع المشكلات التي تعرّض لها العقل البشري من حيث المعرفة الحقّة والاتّصال بالمبدأ الأوّل (الله) قد تعرّض لها العقل الهندي منذ أقدم العصور. فمن الطبيعي أن يطّلع هؤلاء على الفكر الهندي، ويتأثّروا به، من خلال الرهبان الرّحّل من البوذيين الذين كانوا كثيري العدد في بلاد الشام والعراق في عهد الدولة الأمويّة ودولة بني العباس.

أمّا العناصر المشتركة بين التصوّف الهندي والتصوّف الإسلامي فمرجعها إلى ما يلي:

- فكرة الفناء الذاتي في الوجود الكلّي، وهو أشبه «بالنرڤانا» الهندية، إلاّ أن الفرق بينهما هو أنّ «النرڤانا» فناء نهائي، لأنّ النفس تتحرّر من كل القيود الجسديّة، وتتلاشى في النفس الكلّيّة، بحيث لا يصبح لها وجود ذاتي؛ أمّا الفناء عند المتصوّفين الإسلاميين فيعقبه بقاء.

- فكرة المراحل: وهي الطرق التي يسلكها المتصوّف للوصول إلى الفناء.

- فكرة الاتحاد: أي الاتّحاد الكلّي الذي يجعل من الاثنين واحدًا.

---

(١) المائدة: ٨٢.

ـ فكرة الخرقة والسبحة ورياضات الذكر: فالخرقة هي اللباس الذي يرتديه المريد عند دخوله في الجماعة الصوفية. أمّا السبحـة فهي وسيلة لتسبيح الخالق. وأما رياضات الذكر فقد اقتبسها المسلمون عن الهنود.

عامل الأفلاطونيّة الحديثة:

تقوم الأفلاطونيّة الحديثة على فكرة «المثل الأفلاطونيّة» القائمة على الوهم والظل، وترتكز على «الغنوصيّة» التي تقول بأنّ المادّة أصل الشرور في العالم، وأن الله في قمّة الوجود، بينه وبين العالم المادي سلسلة من الكائنات تسمّى الأيونـات.

وإذا قارنّا بين عقائد الصوفيّين والأفلاطونيّة الحديثة نجدها مشبعة بآراء أفلوطين. فمعرفة الله بالعقل غير ممكنة، فالعقل لا يمكّننا إلاّ من معرفة آثاره، وطريق الحقّ لا يكون إلاّ بتطهير النفس من رجس المادة، والبعد عن الملذّات الدنيويّة. حينئذٍ يصل الإنسان إلى مشاهدة الله والاتّصال به، أو التألّه في لغة أفلوطين.

والكلام عن حجب المادة في التصوّف مأخوذ أيضًا من الأفلاطونيّة الحديثة التي تقول بأن سبعين ألف حجاب تفصل بين العالم العلوي والعالم المادي؛ فالنفس حين تهبط إلى الجسم تخترق هذه الحجب. ولكي تعود إلى حيث هبطت يجب أن تتخلّص من أثقالها لتقوى على الصعود، مستعينين على ذلك بالأحوال والمجاهدة والذكر والسماع.

ومن معتقداتهـم القول بوحدة الوجود، وهذه النظريّة تتّفق مع مذهب أفلاطون القائل بـأنّ العالم الطبيعي ظلّ للعالم المثالي. وخلاصتها أنّه لا موجود إلاّ الله، لأنّ كل موجود غير مستغـن عن الله في وجوده، إلاّ وجود الله، فالعالم كلّـه وجوده من ذات الله، ولذاته وبذاته، فهو شأن من شؤونه أو فعل من أفعاله.

العامل الإشراقي:

المعرفة الإشراقيّة هي المعرفة اليقينيّة، وهي نوع من المكاشفة لا يحتاج إلى دليل عقلي أو برهان منطقي، وهي تحصل عند تجرّد النفس من المادّة، بحيث تشرق عليها المعارف العلويّة إشراقًا نورانيًا.

وقد تبنّى الصوفيّون هذه النظريّة، فالمعرفة عندهم حدس باطني وقد تسرّبت آراء الإشراقيين إلى العقيدة الصوفيّة عن طريق بعض أقطابها أمثال البسطامي والحلاج، وانطلاقًا من مبدأ الإشراق قالت الصوفيّة بالاتحاد، والحلول.

النظام الصوفيّ:

اتّخذ المتصوّفون أمكنة لاجتماعاتهم، عرف واحدها «بالرباط» أو «التكيّة»، فكانوا ينقطعون إليها، فيقضون نهارهم بالقراءة، وليلهم بالتهجّد، ويقيمون في المناسبات حفلات الذكر. أما مأكلهم فكسرة خبز وكوب ماء، ولباسهم قميص صوف، وفراشهم حصيرة صغيرة.

ومن شروط الدخول في جماعتهم أن يتخلّى الطالب عن كل أملاكه وأمواله، ويتناسى أهله وأقرباءه، وأن يكون مطيعًا لشيخه ومرشده طاعة عمياء، وأن يزاول القراءة نهارًا، والتهجّد ليلاً. فإذا رضي بذلك كلّه عيّن له شيخ يدرّبه، وفي حال نال رضى شيخه من حيث ارتياضه وتغلّبه على نزواته أُلبس الخرقة الزرقاء بعد أن يكرَّس متصوّفًا.

ولا بدّ للطالب من أن يمرّ بدرجات أربع وهي: المريد، فالسالك، فالمجذوب، فالمتدارك.

أمّا المراتب فهي: المبتدىء، فالمتدرّج، فالشيخ، فالقطب.

وبما أن اعتقاد المتصوّفين أنّ التصوّف هو طريق العبد إلى ربّه، وما حياته إلاّ بمثابة سفر إليه، لذا يأمل بمشاهدة الحقّ. وهذا السفر ذو مراحل تعرف بالمقامات.

المقامات:

وهي ما يقوم به العبد بين يدي ربّه من العبادات والمجاهدات، من أجل الاتصال به، وقد جعلها الشيخ الطوسي في كتابه «اللمع في التصوّف» سبعة هي:

- التوبة: هي الشعور بالإثم، والندم عليه، والعزم على تركه.

- الورع: أن لا يتكلّم العبد إلاّ بالحق غضب أو رضي، وهو أوّل الزهد وفي آخره يلبس السالك المرقّعة.

- الزهد: هو ترك لذائذ الدنيا طمعًا بلذائذ الآخرة.

- الفقر: هو «أن يخلو القلب ممّا خلت اليدان»، وهو الاكتفاء من حاجات الحياة بالضروري.

- الصبر: هو ان يحتمل السالك المكروه باسم الثغر، دون تأفّف أو تذمّر. وهو نوعان: صبر على ما أمر به الله، وصبر عمّا نهى عنه.

- التوكّل: هو الاستسلام الأعمى لمشيئة الله.

- الرضا: هو «سرور القلب بمرّ القضاء».

الأحوال:

هي عشرة في كتاب «اللمع» وهي:

- **المراقبة:** تجعل السالك يفكّر في أنّ الله يراه، فلا تتطرّق إلى قلبه الأفكار الأليمة، ووساوس الشيطان.

- **القرب:** هو اقتراب السالك من ربّه بالطاعة والذكر بالسرّ والعلن.

- **المحبة:** هي دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحبّ، أي أن يكون الغالب على قلب المحبّ ذكر صفات المحبوب.

- **الخوف:** هو لجوء إلى الله من الله نفسه.

ـ **الرجاء**: هو تعلّق النفس بمن تحبّ، أملاً في الوصول إليه في المستقبل.

ـ **الشوق**: هو هيجان النفس لدى ذكر المحبوب.

ـ **الأنس**: هو الشعور بمحادثة المحبوب عن قرب.

ـ **الطمأنينة**: وهي تحدث في قلوب الذين لا يذهبون إلى القول بالأنس «وكأنّنا بهذه الحال وقف على المحافظين الذي لا يزالون يؤمنون بالاتّصال بالله مباشرة في العالم الأرضي ليس من الأمور اليسيرة على البشر، وإن كانوا في الدرجة العليا من الكمال النفساني والاستعداد الذاتي... فيطمئنّون إلى ربّهم في دعة وسلام، ويسلمون له القياد»(١).

ـ **المشاهدة**: هي وصل بين رؤية العين ورؤية القلب.

ـ **اليقين**: هو المكاشفة، ورضى السالك بما قسم الله له.

مبادىء الصوفيّة

إنّ حجر الزاوية في التصوّف الإسلامي هو الشهادتان: الإيمان بالتوحيد، والتصديق بالرسالة؛ وعلى ما يترتّب على المؤمن من فروض ونوافل. أمّا في ما عدا ذلك فللتصوّف نزعته الخاصّة، وفلسفته المستقلّة؛ فمن مبادئه:

ـ الذات الإلهيّة: أي إنّ الله هو الموجود الحقيقي الوحيد، وكل ما سواه باطل.

ـ العالم: لا وجود حقيقي للعالم فهو العدم، ووجود العدم في ذلك ضروري، لأنّه به يعرف الوجود الحقيقي.

ـ الشر: ليس له وجود مطلق في العالم، وإنّما وجوده اعتباري لا ذاتي. لأنّ الكون صورة الله، وليس في صورة الله شرّ.

---

(١) جبور عبد النور. التصوّف عند العرب. ص ١١٥ ـ ١١٦.

ـ الحبّ الإلهي: هو جوهـر العبادة الصحيحة، إذ يجب أن تكون خالصة لوجه الله.

ـ التوكّل المطلق وهو الإيمان بقضاء الله وقدره.

ـ الاتّصال والفناء: بفضل الرياضة الصوفية التي تؤدّي بالنفس إلى الغيبوبة، ترتفع النفس إلى العالم العلوي حيث يتسنّى لها الاتصال بالله والفناء فيه، وتستمدّ منه المعرفة إلى حين.

ـ مصدر المعرفة: هو القلب لا العقل، فإذا أضاءه الله بنور الإيمان غدا صالحًا لإلهام الحقّ.

ـ الإنسان الكامل هو ظلّ الله على الأرض، والنفس العاقلة هي خيال الله في الجسم.

أما شعائر الصوفيّة فهي:

ـ الذكر: أي تكرار اسم الله في حلقاتهم

ـ السماع: أي الإصغاء إلى تكرار الذكر، أو الترتيل وسواهما.

ـ الغناء: أي إنشاد التراتيل أو القصائد الصوفيّة.

ـ الموسيقى: أي الأنغام التي تثير النفوس وتنشيها.

ـ الرقص: أي دوران العبد حول نفسه من شدّة التأثر والنشوة.

ـ تعذيب الجسد: أي قهره بالجوع والعطش والضرب بوسائل شتّى[1].

---

(١) كمال اليازجي وانطون كرم. أعلام الفلسفة العربية، بيروت، ط ٢، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٩.

ابن الفارض

هو أبو القاسم عمر بن مرشد بن علي الحمويّ الأصل، المصريّ المولد والوفاة (٥٧٦ هـ/ ١١٨١م - ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٥م) أشعر المتصوّفين، يلقّب بسلطان العاشقين. في شعره فلسفة تتّصل بما يسمّى «وحدة الوجود». كان والده زاهدًا متقشّفًا، ويُلقَّب بالفارض، لأنّه كان، فيما زُعم، يثبت الفروض للنساء على الرجال بين أيدي الحكام.

نشأ ابن الفارض بمصر، وحُبِّب إليه سلوك طريق الصوفيّة، فتزهّد، وجعل يأوي إلى المساجد المهجورة في خرابات القاهرة وأطراف جبل المقطم. كان شيخ «الاتحاديّة». ومن كلامه بالاتحاد:

وفي موقفي لا بلْ إليّ توجّهي ولكن صلاتي لي ومنّي كعبتي

له «ديوان شعر» جمعه سبطه علي. وفيما يلي بعض قصائده الصوفيّة:

* * *

قلبي يحدّثني بأنّك متلفي
روحي فداك عَرَفت أم لم تعرفِ
لم أقضِ حقّ هواك إن كنتَ الذي
لم أقضِ فيه أسىً ومثلي من يفي

مـا لـي سـوى روحـي وبـاذلُ نفسـه
فـي حـبِّ مـن يهـواه ليس بمسـرفِ
فلئـن رضيـت بهـا فقـد أسعفتنـي
يـا خيبـة المسعـى إذا لـم تُسعِـفِ
يـا مـانعي طيـب المنـام ومـانحـي
ثـوب السقـام بـه ووجـدي المتلـفِ
عطفًـا علـى رمقـي ومـا أبقيـت لـي
مـن جسمـي المضنـى وقلبـي المـدنـفِ

* * *

نسخـت بحبّـي آيـة العشـق مـن قبلـي
فأهل الهوىٰ جنـدي وحكمـي علـى الكـلّ
وكـلُّ فتـىً يهـوىٰ فـإنّـي إمـامـه
وإنّـي بـريء مـن فتـىً سـامـعِ العَـذْل
ولـي فـي الهـوىٰ علـم تُجـلُّ صفـاتـه
ومـن لـم يفقّهـه الهـوىٰ فهـو فـي جهـلِ
ومـن لـم يكـن فـي عـزَّةِ النفس تـائهًـا
بحـب الذي يهـوىٰ فبشّـره بـالـذُّلِ
إذا جـاد أقـوام بمـال رأيتهـم
يجـودون بـالأرواح منهـم بلا بُخْـلِ

وإن وُدِعوا سرًا رأيت صدورهم

قبورًا لأسرارٍ تنزّه عن نقلِ

★ ★ ★

تِهْ دلالاً فأنت أهلٌ لذاكا

وتحكَّمْ فالحسنُ قد أعطاكا

ولك الأمرُ فاقضِ ما أنت قاضٍ

فعليَّ الجمالُ قد ولاّكا

وبما شئتَ في هواكَ اختبرني

فاختباري ما كان فيه رضاكا

فعلىٰ كلّ حالة أنت منّي

بيَ أولىٰ، إذ لم أكن لولاكا!

وكفاني عزًّا بحبِّك ذلّي

وخضوعي ولست من أكفاكا

فاتِّهامي بالحبّ حسبي وأنّي

بين قومي أُعَدُّ من قتلاكا

لك في الحيّ هالكٌ بك حيٌّ

في سبيل الهوى استلذَّ الهلاكا

شنَّع المرجفون عنك بهجري

وأشاعوا أنّي سلوتُ هواكا

مـا بـأحشـائهـم عشِقـت فـأسلـو

عنـك يـومًـا. دَعْ يهجـروا حـاشـاكـا

كيـف أسلُـوا ومقلتـي كلّمـا لاح

بَـريـقٌ تلفتـت للقـاكـا

إن تنسَّمـتُ تحـت ضـوء لثـام

أو تنسَّمـتُ الرِّيـح مـن أنبـاكـا

طِبْـتُ نَفْسًـا إذ لاح صبـحُ ثنـايـا

كَ. لعينـي وفـاح طيـب شـذاكـا

كـلُّ مَـنْ فـي حمـاك يهـواك لكـن

أنـا وحـدي بكـلّ مَـنْ فـي حمـاكـا!

* * *

غيـري علـى السلـوان قـادرْ

وسـواي فـي العشَّـاق غـادر

لـي فـي الغـرام سـريـرة

والله أعلـم بـالسـرائـر

ومشبَّـه بـالغصـن قلبـي (م)

لا يـزال عليـه طـائـر

حلـو الحـديـث وإنهـا

لحلاوة شَقَّـت مـرائـر

أشكــــو وأشكــــرُ فعلـــه

فــاعْجَبْ لشــاكٍ منـه شــاكـر

لا تنكــروا خفقـان قلبـــي (م)

والحبيــب لــدي حــاضـر

مـــــا القلـــب إلاّ داره

ضــربـت لـه فيهـا البشــائـر

يــا تــاركـي فــي حُبّــه

مثلاً مــن الأمثــال ســائــر

أبـــداً حــديثـي ليس بــالـ

منســوخ إلاّ فــي الدفــاتــر

يــا ليــل مـا لــك آخــر

يُــرجـى ولا للشـــوق آخـــر

يــا ليــل طـلْ يــا شــوقُ دُمْ

إنّـي علـى الحـاليـن صـابـر

★ ★ ★

هو الحبّ فاسلم بالحشا ما الهوى سهـلُ

فما اختـاره مُضنـىً بـه ولـه عقْـلُ

وعش خـاليّـا فـالحـبُّ راحتـه عَنَـا

وأولـه سُقـم وآخـره قَتْـلُ

ولكــنْ لــديَّ المــوتُ فيــه صبــابــةً

حيـاةٌ لمـن أهـوىٰ علـيَّ بهـا الفضــلُ

نصحتُـك عِلمّــا بــالهـوىٰ والذي أرى

مخـالفتـي، فـاختـرْ لنفسـك مـا يحلـو

فـإن شئـت أن تحيـا سعيـداً فَمُـتْ بــه

شهيــدًا وإلاَّ فــالغــرام لــه أهــلُ

فمـن لـم يمـت فـي حُبِّـه لـم يعشْ بــه

ودون اجتنـاء النَّحـل مـا جنـت النَّحــلُ

تَمَسَّـكْ بـأذيـال الهـوىٰ واخلـع الحَيَـا

وخــلِّ سبيــل النــاسكيــن وإن جَلّــوا

وقــل لقتيــل الحــبِّ وفّيــت حَقَّــه

وللمـدَّعـي هيهـاتَ مـا الكَحَـل الكُحْـلُ

تَعَــرَّض قــوم للغــرام وأعــرضــوا

بجـانبهـم عــن صحتــي فيــه واعتلُّــوا

رضـوا بـالأمـانـي وابتلـوا بحظـوظهـم

وخاضوا بحار الحُـبّ دعـوىٰ فمـا ابتلّـوا

فهم في السَّرى لم يبـرحـوا مـن مكـانهـم

ومـا ظعنـوا فـي السيـر عنـه وقـد كَلّـوا

حنين إلى اللقاء

أرجُ النسيم سرى مِن الزوراءِ سَحَرًا فأحيا مَيِّتَ الأحياءِ[1]

... فسكِرتُ من ريا حواشي بردِهِ وسرت حُمَيَّا البُرء في أدوائي[2]

كَلِم السُّهادُ جفونه فتبادرت عبراتهُ ممزوجةً بدماء[3]

وا حسرتي! ضاعَ الزمانُ ولم أفز منكم أُهيلَ مودّتي بلقاء

إن ينقضي صبري فليسَ بمنقضٍ وجدي القديمُ بكم ولا برَحائي[4]

وحياتكم يا أهل مكة، وهي لي قسمٌ، لقد كلِفت بكم أحشائي

حُبّيكُمُ في الناس أضحى مذهبي وهواكُمُ ديني وعقدُ ولائي

وكفى غرامًا أن أبيتَ مُتيَّمًا شوقي أمامي والقضاءُ ورائي[5]

* * *

---

(١) الزوراء: اسم لبغداد، وموضع بالمدينة قرب المسجد وهو الغالب هنا، وربما قصد بها الحقيقة المحمدية، وقد كنى بأرج النسيم عن انتشار ما تحمله الروح من المعارف الالهية. أحيا: أي بالحياة الأبدية.

(٢) الحميا: سورة الكأس أو اسكارها؛ الأدواء: جمع داء.

(٣) هنا يستأنف الحديث عن نفسه بضمير الغيبة.

(٤) البرحاء: الشدة. تتجاذب الشاعر قوتان: الصبر والوجد، والوجد حال أدْوَم.

(٥) انه بين شوق يحدوه إلى الحبيب الذي هو الحق، وقضاء محتوم يتحكم به.

خمريّته وشرحها للشيخ حسن البورينيّ

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْـرِ ٱلْحَبِيـبِ مُـدَامَـةً سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ ٱلْكَـرْمُ

(شربنا) أي معاشر السالكين في طريق الله تعالى. (على ذكر الحبيب) أي المحبوب وهو الحقُّ تعالى. وقد يُراد (بالذكر) الذِكر باللسان أو بالقلب والجنان. وأشار إلى أن ذكر الله عندهُ من أقوى أسباب الطرب. (مدامة) أي خمرة. والمعنى هنا شراب المحبة الالهية الناشئة من شهود آثار الأسماء الجماليّة العليّة. وقولهُ (سكرنا) أي غبنا لذَّة وطربًا بنشأة تلك الخمرة. قولهُ (من قبل أن يخلق الكرم) يشير إلى قول القائل: ألستُ أنا ربكم قبل أن يخلق الكرم إلى الوجود.

لَهَا ٱلْبَدْرُ كَأْسٌ وَهْيَ شَمْسٌ يُدِيرُهَـا هِلالٌ وَكَمْ يَبْدُو إِذَا مُـزِجَـتْ نَجْـمُ

هذا البيت عجيب في بابهِ فانهُ مشتمل على ذكر ألفاظ يناسب بعضها بعضًا وهي البدر والشمس والهلال والنجم وكذلك الكأس والإدارة والمزج. وقولهُ: لها البدر كأسٌ أي قلب العالِم المحقق العامل. (وهي شمس) أي المدامة المراد بها المعرفة الالهيّة التي تفيض أنوارها في جميع الكائنات تشبه الشمس في طلوعها واشراقها. وقولهُ: يديرها أي ينشر اسماء تلك الحضرة الالهية وصفاتها. وقولهُ هلالٌ هو ذاك البدر الا أنه مُحتجب.

وَلَوْلَا شَذَاهَا مَـا ٱهْتَـدَيْـتُ لِحَـانِهـا وَلَوْلاَ سَنَاهَا مَـا تَصَـوَّرَهَـا ٱلْـوَهْـمُ

يقول: لولا روائح تلك الحضرات لما اهتديتُ إلى الأسماء الحُسنى والصفات العليا لأن عبيرها عطَّر الأكوان. وقولهُ: لولا سناها الخ كنى بهِ عن النور الروحاني الذي بضوءهِ ادرك الانسان حقيقة الوجودِ الالهي.

وَلَمْ يُبْقِ مِنْهَا ٱلدَّهْرُ غَيْـرَ حُشَـاشَـةٍ كَأَنَّ خَفَاهَا فِي صُدُورِ ٱلنُّهَـى كَتْـمُ

يقول: ان زخارف الدنيا تشغل القلوب الغافلة عن النهوض الى شهود تجليات الحق. ويشبه خفاء تلك الحقيقة عند العقول البشريَّة خفاء الأسرار وكتمها في صـدور الذين أوتوا العلم الالهي.

فَإِنْ ذُكِرَتْ فِي ٱلْحَيِّ أَصْبَـحَ أَهْلُـهُ نَشَـاوَى وَلاَ عَـارٌ عَلَيْهِـمْ وَلاَ إِثْـمُ

يعني ان ذكرت تلك الحضرة عند المتأهلين بالاستعداد لقبول انوار الفيض الرباني فيصبحون سكارى ويغيبون عن أوهامهم في التحقق بمعاني الجلال.

وَمِنْ بَيْنِ أَحْشَاءِ ٱلدِّنَانِ تَصَاعَـدَتْ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا فِي ٱلْحَقِيقَـةِ إِلاَّ ٱسْـمُ

يقول: إنهُ بتقاصر الهمم الروحانيّة على نيل هذه المدامة ولانحراف قلوب البشر اختفت العلوم الالهيّة شيئاً فشيئاً من صدور الرجال حتى توارت ولم يبقَ منها إلاَّ الاسم.

قد جمع الشاعر أوصافهُ عزَّ وجلَّ فإن هذه الصفات باعتبار تجلّي حقيقتها الغيبيّة عليهِ ظاهرة لهُ بأربعة أوصاف: الصفاء واللطف والضياء والروح. فهي روح مجرَّد عن كثافات العناصر الأربعة بعيدة عن كل جسم حسي.

تَقَـدَّمَ كُـلَّ ٱلْكَـائِنَـاتِ حَـدِيثُهـا قَدِيمًـا وَلاَ شَكْـلٌ هُنَـاكَ وَلاَ رَسْـمُ

يُريد أن وجود الله قد سبق وجود الكائنات بأجمعها قبلما تُبدع الصُوَر الحسيَّة في عالم الكون

وَقَامَتْ بِهَا ٱلأَشْيَاءُ ثَمَّ لِحِكْمَةٍ بِهَا ٱحْتَجَبَتْ عَنْ كُلِّ مَنْ لاَ لَهُ فَهْمُ

أي بواسطة هذه الحكمة قد خلقت الكائنات وإنما قد خَفِيت عن الخطأة والذين لم يُدركوا الالهيَّات.

وَهَامَتْ بِهَا رُوحِي بِحَيْثُ تَمَازَجَا اتِّحَادًا وَلاَ جِرْمٌ تَخَلَّلَهُ جِرْمُ

يقول انهُ لفرط شغفهِ بهذه الحكمة الربَّانيَّة قد كاد يستحيل إليها:

وَلاَ قَبْلَهَا قَبْلٌ وَلاَ بَعْدَ بَعدهَا وَقَبْلِيَّة ٱلأَبْعَادِ فَهْيَ لَهَا حَتْمُ

وَقَالُوا شَرِبْتَ ٱلإِثْمَ كَلَّا وإِنَّمَا شَرِبْتُ ٱلَّتِي فِي تَرْكِهَا عِنْدِي ٱلإِثْمُ

إن هذا البيت ردٌّ على من اتهمهُ بشرب الخمرة فيقول ان سكره لا بالخمرة المعتصرة من العنب بل بالعزَّة الالهيَّة التي هام بحبها.

هَنِيئًا لِأَهْلِ ٱلدَّيْرِ كَمْ سَكِرُوا بِهَا وَمَا شَرِبُوا مِنْهَا وَلٰكِنَّهُمْ هَمُّوا

يقول انهُ يستطوب الرهبان والعباد الذين شربوا من هذه المدامة بل رغبوا الى مشاهدة الجمال الالهي.

وَعِنْدِيَ مِنْهَا نَشْوَةٌ قَبْلَ نَشْأَتِي مَعِي أَبَدًا تَبْقَى وَإِنْ بَلِيَ ٱلْعَظْمُ

يقول إن قلبهُ تشرَّب محبة الله فلا يعدمها وان فاجأتهُ المنيَّة.

فَمَا سَكَنَتْ وَٱلْهَمَّ يَوْمًا بِمَوْضِعٍ كَذٰلِكَ لَمْ يَسْكُنْ مَعَ ٱلنَّغَمِ ٱلْغَمُّ
فَلاَ عَيْشَ فِي ٱلدُّنْيَا لِمَنْ عَاشَ صَاحِياً وَمَنْ لَمْ يَمُتْ سُكْرًا بِهَا فَاتَهُ ٱلْحَزْمُ
عَلَى نَفْسِهِ فَلْيَبْكِ مَنْ ضَاعَ عُمْرُهُ وَلَيْسَ لَهُ فِيهَا نَصِيبٌ وَلاَ سَهْمُ

هذا القول إغراء بشرب هذه المدامة السماويَّة التي أضحت مبدأ كل سرور

فإنها حيثما حلَّت تضمحلُّ أكدار العالم وخطوب الدهر.

وَإِنْ خَطَرَتْ يَوْمًا عَلَى خَاطِرِ آمْـرِئٍ أَقَامَـتْ بِـهِ ٱلْأَفْـرَاحُ وَٱرْتَحَـلَ ٱلْهَـمُّ

يقول ان تجلّي العزَّة الالهية يبدِّد كل غمّ ويشمل القلوب بكل فرحٍ

وَلَـوْ نَظَـرَ ٱلنَّـدْمَـانُ خَتْـمَ إِنَـائِهَـا لَأَسْكَرَهُمْ مِـنْ دُونِهَـا ذٰلِـكَ ٱلْخَتْـمُ

يقول ان أثر التجلّي الربَّاني في قلب السالكين جدير بتبديد سقامهم

وَلَـوْ نَضَحُـوا مِنْهَـا ثَـرَى قَبْـرِ مَيِّـتٍ لَعَـادَتْ إِلَيْـهِ ٱلـرُّوحُ وَٱنْتَعَشَ ٱلْجِسْـمُ

وَلَوْ طَرَحُوا فِي فَـيْءِ حَـائِـطِ كَـرْمِهَـا عَلِيلًا وَقَـدْ أَشْفَـى لَفَـارَقَـهُ ٱلسُّقْـمُ

وَلَوْ قَرَّبُـوا مِـنْ حَـانِهَـا مُقْعَـدًا مَشَـى وَتَنْطِقُ مِـنْ ذِكْـرَى مَـذَاقَتِهَـا ٱلْبُكْـمُ

وَلَوْ عَبِقَتْ فِي ٱلشَّـرْقِ أَنْفَـاسُ طِيبِهَـا وَفِي ٱلْغَـرْبِ مَـزْكُـومٌ لَعَـادَلَـهُ ٱلشَّـمُّ

وَلَوْ خُضِبَتْ مِن كَـأْسِهَـا كَـفُّ لَامِسٍ لَمَا ضَـلَّ فِـي لَيْـلٍ وَفِـي يَـدِهِ ٱلنَّجْـمُ

وَلَـوْ جُلِيَـتْ سِـرًّا عَلَـى أَكْمَـهٍ غَـدًا بَصِيـرًا وَمِـنْ رَاوُوقِهَـا تَسْمَـعُ ٱلصُّـمُّ

وَلَـوْ أَنَّ رَكْبًـا يَمَّمُوا تُـرْبَ أَرْضِهَـا وَفِي ٱلرَّكْبِ مَلْسُـوعٌ لَمَـا ضَـرَّهُ ٱلسُّـمُّ

وَلَوْ رَسَمَ ٱلرَّاقِي حُـرُوفَ آسْمِهَـا عَلَـى جَبِيـنِ مُصَـابٍ جُـنَّ أَبْـرَأَهُ ٱلـرَّسْـمُ

وَفَوْقَ لِـوَاءِ ٱلْجَيْشِ لَـوْ رُقِـمَ آسْمُهَـا لَأَسْكَرَ مَنْ تَحْتَ ٱللِّـوَا ذٰلِـكَ ٱلـرَّقْـمُ

تُهَـذِّبُ أَخْلَاقَ ٱلنَّـدَامَـى فَيَهْتَـدِي بِهَا لِطَـرِيـقِ ٱلْعَـزْمِ مَـنْ لاَ لَـهُ عَـزْمُ

وَيَكْرُمُ مَـنْ لَـمْ يَعْـرِفِ ٱلْجُـودَ كَفُّـهُ وَيَحْلُـمُ عِنْـدَ ٱلْغَيْـظِ مَـنْ لاَ لَـهُ حِلْـمُ

وَلَـوْ نَـالَ فَـدْمُ ٱلْقَـوْمِ لَثْـمَ فِـدَامِهَـا لَأَكْسَبَـهُ مَعْنَـى شَمَـائِلِهَـا ٱللَّثْـمُ

أراد الشاعر بهذه الأبيات صفة ما تنتجهُ الحضرة الإلهيَّة في البشر وذوي

العاهات من برء لسقامهم ان شملت قلوبهم الحقائق العرفانيَّة وان أرادوا نهج المسالك الربَّانيَّة.

يَقُولُونَ لِي صِفْهَا فَأَنْتَ بِوَصْفِهَا ... خَبِيرٌ. أَجَلْ عِنْدِي بِأَوْصَافِهَا عِلْمُ

صَفَاءٌ وَلاَ مَاءٌ وَلُطْفٌ وَلاَ هَوًا ... وَنُورٌ وَلاَ نَارٌ وَرُوحٌ وَلاَ جِسْمُ

★ ★ ★

الفناء والمشاهدة

تجلي المحبوب الحقيقي:

سقتني حُميّا الحبِّ راحة مقلتي ... وكأسي محيًا من عن الحسن جلّتِ[1]

فكلُّ مليحٍ حُسْنُه من جمالها ... معارٌ له، بل حسنُ كل مليحةِ

وما ذاكَ إلا ان بدت بمظاهرٍ ... فظنوا سواها وهي فيها تجلتِ

بدت باحتجابٍ، واختفت بمظاهرٍ ... على صُبَغ التلوين في كل برزةِ

وما برحت تبدو وتخفى، لعلةٍ، ... على حسب الأوقات، في كل حقبةِ

وتظهرُ للعشاق في كل مظهر ... من اللبس في أشكال حسنٍ بديعةِ

ولسنَ سواها، لا، ولا كنَّ غيرها ... وما ان لها في حُسنها من شريكة[2]

---

(١) فيه رجوع إلى الحب والخمر والكأس. أما قوله ان المحبوبة جلّت عن الحسن، فمراده به ان الحق المطلق فوق الجمال لا يناله وصف الواصفين.

(٢) يريد: ان مظاهر الجمال كلها، على تنوعها، إنما هي فروع من جمال الروح الالهي الحبيب، وهو مخفي وراء الحجب والأصباغ والأشكال. وما روعة الوجود غير روعته تعالى، وليس له في كماله شريك.

الحب في طوره الأول:

هَبي، قبلَ يُفْني الحبُّ مني بقيةً ... أراكِ بها، لي نظرةَ المتفلتِ

فعندي لسكري فاقةٌ لإفاقةٍ ... لها كبدي، لولا الهوى، لم تفتّتِ

ولم أحْكِ في حُبّيكِ حالي تبرّما ... بها لاضطرابٍ، بل بتنفيس كربتي

ويمنعني شكوايَ حُسنُ تصبُّري ... ولو أشكُ للاعداء ما بي لأشكتِ

وما حلّ بي من محنةٍ فهو منحةٌ ... وقد سلمت من حلّ عقدِ عزيمتي

وكلُّ أذًى في الحبِّ منك إذا بدا ... جعلتُ له شكري وكانَ شكيّتي[1]

الموت في المحبة حياة:

فلم تهوني، ما لم تكن فيّ فانياً، ... ولم تفنَ، ما لا تجتلي فيك صورتي[2]

وجانبْ جنابَ الوصلِ، هيهاتَ لم يكن ... وها أنت حيٌّ، إن تكن صادقاً مُتِ[3]

هو الحبُّ، إن لم تقضِ، لم تقض مأرباً ... من الحبّ، فاختر ذاك أو خلّ خُلتي[4]

الفناء سبيل الصفاء:

فأفنى الهوى ما لم يكن ثمَّ باقياً ... هنا من صفات بيننا فاضمحلتِ[5]

---

(١) يخاطب المحبوبة يسألها أن تمن عليه برؤيتها قبل ان يعروه الفناء. ويلتمس العذر عن شكواه مما يعاني من ألم هواه. ولو أنه افضى بالسر الذي يبرحه للعدو لرق العدو لحاله. وهو في ذلك كله متصبر راض يعد الألم هبة. وهذه هي لذة الألم.

(٢) لا يسمى الحب كذلك الا إذا تم الفناء في المحبوبة، ولا يكون ما لم تتضح في نفس العاشق صورة معشوقه الأسمى.

(٣) جانب: حاذر. جناب: قرب، ومراده: لا يكونن وصل الا بالموت، إذ الحياة وعي واقتراب من عالم الظلال المحسوس.

(٤) الخلة: المصادقة، والخلة: ضرب من الشجر الشائك؛ والمعنى يستقيم في الاحتمالين، والأول هو الأرجح، فيكون مقصوده: فاما أن تموت وإمّا أن تدعني وشأني.

(٥) بالحب زالت الصفات الجسمانية التي هي الحجب الفاصلة ما بينه وبين محبوبته.

فألفيتُ ما ألفيتُ عنيَ صادراً إليَّ ومني وارداً بمزيدتي[1]
وشاهدتُ نفسي بالصفات التي بها تحجبتُ عني في شهودي وحجبتي
واني التي أحببتُها لا محالةً وكانت لها نفسي عليّ محيلتي[2]

من الوجود إلى الشهود:

جلتْ في تجليها الوجودَ لناظري ففي كل مرئيٍّ أراها برؤيةِ[3]
وأشهدتُ غيبي إذ بدت، فوجدتني، هنالك، إياها بجلوة خلوتي[4]
وطاحَ وجودي في شهودي، وبنتُ عن وجود شهودي ماحياً غير مثبت[5]
وعانقتُ ما شاهدتُ في محو شاهدي بمشهده للصحو من بعد سكرتي[6]
فصرتُ حبيباً بل محبّاً لنفسه وليس كقولِ مرَّ: نفسي حبيبتي

وحدة الوجود:

أروحُ بفقدِ بالشهود مؤلفي وأغدو بوجدِ بالوجود مُشتتي[7]

---

(١) يريد: انه هو البداية والمصدر، وهو المنتهي والمآل.

(٢) بعد ارتفاع الحجب تكشفت ذاته لذاته، واتضح له ما كان قد شبه له والتبس عليه.

(٣) هي التي أظهرت الوجود لناظريه فبات يراها في كل موجود.

(٤) يقول: ولما تجلت عرفت أن ذاتي هي عين ذات المحبوبة.

(٥) طاح به: ذهب به وأفناه؛ بنت: من بان، أي بعُدَ وشط. ومراده: أن وجود الشاعر قد امحى في المحبوبة التي شاهدها. والمحو وجود سلبي مختلف عن الإثبات الذي هو الوجود المحسوس خاصة.

(٦) لقد تحصل له صحو رائع بعد السكر الذي انتشى به مما شاهده في باطنه؛ ومرد هذا الصحو الى أن المحبوبة هي الوجود المطلق. والصحو يعقب السكر، والسكر أعلى درجات الغيبة.

(٧) يقصد ان الوجد يشعره بوجود ذاته ويبعده بالتالي عن محبوبته، وان الشهود يفقده هذا الشعور.

يفـرّقنـي لبّـي التـزامـاً بمحضـري ويجمعني سلبـي اصطلامـاً بغيبتـي[1]

إخالُ حضيضي الصحو، والسكر معرجي إليها، ومحوي منتهى قابِ سدرتـي[2]

وشفعُ وجودي في شهوديَ ظلّ فـي اتـ ـحاديَ وتـراً فـي تيقـظ غفـوتـي[3]

تعانقـتِ الأطـرافُ عنـديَ وانطـوى بساط السوى عدلاً بحكـم السـويـةِ[4]

القطبية مصدر الوجود:

فبي دارتِ الأفلاكُ فاعجب لقطبها الـ ـمحيط، فإنَّ القطبَ مركـزُ نقطـةِ[5]

وكلهُـمُ عـن سبــقِ معنــاي دائــرٌ بـدائـرتـي، أو واردٌ مـن شـريعتــي

* * *

---

(١) اصطلاماً: مصدر من اصطلم، اي استأصل. هذا البيت تتمة لسابقه؛ يريد فيه: ان العقل هو سبب التفرقة، وان الجمع والاتحاد لا يتمان الا في حالة الغيبة.

(٢) معرج: مرقاة؛ قاب: قرب؛ سدرة: من قولهم سدرة المنتهى، وهي شجرة نبق عن يمين عرش الرب، فيستقيم في هذه الرحلة الروحية ان أولها الحضيض وآخرها الاتحاد بالمحبوب الالهي.

(٣) الشفع: من شفع الشيء صيره زوجاً بعد أن كان واحداً؛ الوتر: الواحد؛ يرى أن غيبوبته بذاتها هي اليقظة الواعية ومراده: ان وجوده وشهوده ظلاً متمايزين حتى كانت غفوته اليقظة، فكان الاتحاد.

(٤) أي: تجمع ما كان شتيتاً، ولم يعد ثمت تمييز بين الانية والغيرية، بين المحبوبة والشاعر اذ انهما قد تساويا في معادلة الوجود.

(٥) كان الانسان الكامل قطباً حسياً أو «وتداً» ثم أصبح قطباً معنوياً تدور على محوره الأفلاك. وتراه يكني به عن الحقيقة القديمة الشاملة.

أنا القتيل بلا إثمٍ ولا حَرَجِ

ما بَيْنَ مُعْتَرَكِ الأحْداقِ والمُهَجِ ... أنا القتيلُ بِلا إثْمٍ ولا حَرجِ[١]

ودَّعْتُ قبلَ الهوىَ روحي لِما نَظرَتْ ... عيْناي مِنْ حُسْنِ ذاك المَنظَر البَهجِ

للهِ أجفانُ عَيْنٍ فيكَ ساهِرَةٍ ... شوقًا إليكَ وقلبٌ بالغرامِ شَجِ[٢]

وأضلُعٌ نَحِلَتْ كادتْ تُقَوِّمُها ... مِنَ الجَوَى كَبِدي الحرَّى مِنَ العِوَجِ[٣]

وأدمُعٌ هَمَلَتْ، لولا التَّنفُّسُ مِنْ ... نارِ الهوَى لم أكَدْ أنْجو مِنَ اللُّججِ[٤]

وحبَّذا فيكَ أسْقامٌ خَفِيتُ بها ... عني تَقومُ بِها عندَ الهوى حُجَجي

أصبحتُ فيكَ كما أمسيتُ مُكتئبًا ... ولم أقُلْ جَزَعًا يا أزْمةُ انْفَرِجي

أهْفو إلى كلِّ قَلْبٍ بالغرامِ لَهُ ... شُغُلٌ وكلِّ لسانٍ بالهَوَى لَهِجِ[٥]

وكُلِّ سَمْعٍ عنِ اللّاحي به صَمَمٌ ... وكلِّ جفْنٍ إلى الإغفاء لم يَعُجِ[٦]

لا كان وجْدٌ بهِ الآماقُ جامِدةٌ ... ولا غَرامٌ به الاشواقُ لم تَهِجِ[٧]

عَذِّبْ بما شئتَ غيرَ البُعْدِ عنكَ تَجِدْ ... أوْفَى مُحِبٍ بما يُرضيكَ مُبْتَهِجِ

---

(١) المعترك: مكان الاعتراك، القتال. الأحداق: جمع حدقة، وهي العين. المهج: جمع مهجة، وهي دم القلب. الاثم: الذنب. الحرج: الاثم والذنب.

(٢) الشّجي: الحزين.

(٣) نحلت: هزلت. الجوى: شدة الوجد. الحرّى: الكثيرة الحرارة.

(٤) هملت: انصبَّتْ. اللُّجج: جمع لُجّة: معظم الماء.

(٥) أهفو: أميل. لهج بالشيء: أكثر من ذكره.

(٦) لم يعج: لم يَمل.

(٧) الآماق: أراد العيون. جامدة: أي لا يسيل دمعها. لم تهج، لم تثر، لم تضطرم.

وخُـذْ بَقِيّـةَ مـا أبْقَيْـتَ مِـنْ رَمَـقٍ   لا خَيْرَ في الحُبِّ إنْ أبقَى على المُهَجِ [1]

مَنْ لي بإتْلافِ روحي في هوى رَشـأٍ   حُلْوِ الشَّمائـل بـالأرواح مُمْتـزجِ [2]

مَنْ ماتَ فيه غَرامًا عـاش مُـرتَقِيًـا   ما بينَ أهلِ الهوَى في أرفـعِ الدَّرَجِ

مُحجَّبٌ لو سَرى فـي مِثْـلِ طُـرَّتـهِ   أغنتْهُ غُـرَّتُـهُ الغَـرَّا عـن السُّـرُجِ [3]

وإنْ ضَلِلْـتُ بِلَيْـلٍ مِـنْ ذَوائِبِـهِ   أهْدَى لعيني الهُدى صُبْحٌ مِنَ البَلَجِ [4]

وإنْ تَنَفَّس قـال المِسْـكُ مُعْتـرِفًـا   لِعارِفـي طِـيبِـهِ: مِـنْ نَشْـرِهِ أرَجـي

أعـوامُ إقبـالـهِ كـاليـومِ فـي قِصَرٍ   ويومُ إعراضِه في الطول كالحِجَـجِ [5]

فإنْ نَأى سائرًا يـا مُهجَتـي ارتَحِلـي   وإنْ دنـا زائـرًا يـا مُقلَتـي ابْتَهجِـي

قـلْ لِلَّـذي لامني فيــهِ وعَنَّفَنِــي   دَعْني وشأني وعُدْ عن نُصْحِكَ السَّمِجِ

فـاللّـوْمُ لُـؤْمٌ ولـم يُمْدَحْ بـه أحَـدٌ   وهل رأيْتَ مُحِبًّا بـالغـرام هُجِـي؟

يا ساكنَ القلْبِ لا تنْظُرْ إلى سَكَنـي   وارْبحْ فؤادَكَ واحذَرْ فِتنةَ الدَّعَـجِ [6]

يا صاحبـي وأنـا البَـرُّ الرؤوفُ وقـد   بذلتُ نُصحِي بذاكَ الحـيِّ لا تَعُـجِ

فيهِ خلعْتُ عِـذاري واطَّـرحْـتُ بـهِ   قَبولَ نُسكِيَ والمقبولَ مِنْ حِجَجِـي [7]

وابْيَـضَّ وجـهُ غَـرامـي فـي مَحَبَّتِـهِ   واسْوَدَّ وجْهُ ملامـي فيـه بـالحُجَـجِ

---

(١) الرمق: بقية الروح.

(٢) الرَّشأ: ولد الغزال.

(٣) الطُّرَّة: شعر الناصية. غُرّته الغَرّاء: وجهه الحَسَن. السُّرُج: جمع سراج، وهو إناء يُنار بفتيل مغموس بالزيت.

(٤) الذوائب: جمع ذؤابة، وهي خصلة الشعر. البلج: أراد به الجبين المشرق.

(٥) الحِجج: جمع حِجّة، وهي السنة.

(٦) الدَّعَج: سواد العين مع سَعتِها.

(٧) خلعت عِذاري: كناية عن التهتك. من حججي: أي من حجي إلى البيت الحرام. والحِجج جمع حِجّة.

تَبارَكَ اللهُ ما أحْلَى شَمائِلَهُ ... فكَمْ أماتَتْ وأحْيَتْ فيهِ مِنْ مُهَجِ

يَهوَى لِذِكْرِ اسْمِهِ مَنْ لجَّ في عَذَلي ... سَمْعي وإن كان عَذْلي فيهِ لم يَلِجِ [1]

وأرحَمُ البرْقَ في مَسْراهُ، مُنتَسِبًا ... لِثَغْرِهِ وهوَ مُسْتَحْيٍ مِنَ الفَلَجِ [2]

تَراهُ إنْ غابَ عني كلُّ جارحةٍ ... في كلِّ مَعنىً لطيفٍ رائقٍ بَهِجِ

في نَغْمةِ العودِ والنّاي الرَّخيمِ إذا ... تألَّفا بَيْنَ ألْحانٍ من الهَزَجِ [3]

وفي مَسارحِ غِزْلانِ الخَمائلِ في ... بَرْدِ الأصائلِ والإصْباحِ في البلَجِ [4]

وفي مَساقِطِ أنْداءِ الغَمامِ على ... بِساطِ نَوْرٍ من الأزهارِ مُنتَسِجِ

وفي مَساحِبِ أذْيالِ النَّسيمِ إذا ... أهْدَى إليَّ سُحَيْرًا أطيَبَ الأرجِ

وفي الْتِثامِيَ ثَغْرَ الكأسِ مُرْتَشِفًا ... ريقَ المُدامةِ، في مُسْتَنْزَهٍ فَرِجِ [5]

لمْ أدْرِ ما غُرْبَةُ الأوطانِ وهْوَ مَعي ... وخاطِري أيْنَ كُنّا غيرُ مُنْزَعِجِ

فالدّارُ داري وحُبّي حاضِرٌ ومَتَى ... بَدا فَمُنْعَرَجُ الجرعاءِ مُنعَرجي [6]

لِيَهْنَ رَكْبٌ سَرَوْا ليلًا وأنتَ بِهِمْ ... بسَيْرِهِمْ في صباحٍ، مِنْكَ، مُنْبَلِجِ

فلْيَصْنَعِ الرَّكْبُ ما شاؤوا بأنفُسِهِمْ ... هُمْ أهلُ بَدْرٍ فلا يَخشَوْنَ مِنْ حَرَجِ

بحَقِّ عِصْيانيَ اللّاحي عليكَ وما ... بأضْلُعي طاعةً للوَجْدِ من وَهَجِ

أُنظُرْ إلى كَبِدٍ ذابَتْ عليكَ جَوًى ... ومُقْلةٍ مِنْ نَجيعِ الدّمْعِ في لُجَجِ

---

(١) لجّ: ألح واجتهد. لم يلج: لم يدخل.

(٢) الفَلَج: التباعد بين الاسنان.

(٣) الهَزَج: نوع من الأغاني العربية القديمة، وفيه تَرَنُّم.

(٤) الأصائل: جمع أصيل: وهو ما بين العصر إلى الغروب.

(٥) فرج: يشرح الصدر.

(٦) المُنعَرَج: مكان انعراج الوادي. الجرعاء: الرملة الطيبة.

وارْحَمْ تَعَثُّرَ آمالي، ومُرْتَجَعي إلى خِداعِ تَمَنّي الوعْدِ بالفَرَجِ
واعطِفْ على ذُلِّ أطماعي بِهَلْ وعَسَى وامْنُنْ عَلَيَّ بِشَرْحِ الصدْرِ مِنْ حَرجِ
أهلًا بما لمْ أكُنْ أهلًا لِمَوْقِعِهِ قَوْلِ المُبَشِّرِ، بَعدَ اليأسِ، بالفَرَجِ
لكَ البِشارةُ، فاخْلَعْ ما عليْكَ، فقدْ ذُكِرْتَ ثَمَّ على ما فيكَ مِنْ عِوَجِ

★ ★ ★

سائق الأظعان(★)

سائِقَ الأظعانِ يطوي البيدَ طيّ منعِماً عرجْ على كثبانِ طيّ[(١)]
وبذاتِ الشيْخِ عَنّي إن مَرَرْ تَ بحيٍّ من عُرَيْب الجزع حيّ[(٢)]
وتلطف واجرِ ذكري عندهم علهم انِ ينظروا عطفاً إليّ[(٣)]
قُلْ: تركتُ الصبَّ فيكم شبحاً ما له ممّا براهُ الشوقُ فيّ[(٤)]
خافياً عن عائدٍ لاحَ كما لاحَ في بُردَيه بعد النشر طيّ[(٥)]
صار وصفُ الضرِّ ذاتيّاً له عن عناء، والكلامُ الحيّ لَيّ[(٦)]
بين أهليه غريباً نازحاً وعلى الأوطان لم يعطفه ليّ[(٧)]

(★) اقتبسنا شرح هذه القصيدة من كتاب «أعلام الفلسفة العربية» لكمال اليازجي وأنطوان كرم.

(١) كثبان طي: كناية عن المقامات المحمدية يلتمس ابن الفارض الوصول اليها.

(٢) يقول: ان مررت بأظعانك في المقام المكي حيه بذات الشيخ. والمقصود بعطر الشيخ ان المحبوب كالعطر لا يرى بالأبصار.

(٣) يدعوه الى تلطيف هذه المادة ليتقرب بالتلطف الى محبوبه.

(٤) مراده: أنه قد ذاب حباً حتى اضمحل ولم يعد لجسمه ظل ينطرح.

(٥) لقد اشتد زواله وفناؤه حتى لم يبد لزائره منه غير لمح سراب.

(٦) الضر: الهلاك: الحي: الحق؛ اللي: الباطل؛ يعود الضمير الى الصب. يريد: أن وصفه عين ذاته، وقد التبس الكلام على هذا الوصف. حتى اختلط ما كان واضحاً من قوله.

(٧) اللي: العطف، الأوطان: تمثل عالم الكون والفساد، إنه غريب في هذا العالم بين أهله وخلانه، لأن أثر البشرية عالق به يحول دون اتصاله بالغيب، اي بعالم المحبوب.

نشـرَ الكـاشـحُ مـا كـانَ لـه طـاويَ الكشح قُبَيْـل النـأي طـي[1]

فـي هـواكـم رمضـانٌ عمْـرُهُ ينقضـي مـا بيـن إحيـاء وطـي[2]

صـاديـاً شـوقـاً، لصـدّي طيْفكـم جـدُّ مُلتـاح الى رؤيـا وريّ[3]

حـائـراً فيمـا إليـه أمـرُهُ صـائرٌ والمـرء فـي المحنـة عـيّ[4]

والذي أرويـه عـن ظـاهـر مـا بـاطنـي يـزويـه عـن علمـيَ زي[5]

ومتـى أشكـو جـراحـاً بـالحشـا زيد بالشكـوى اليهـا الجـرح كـي[6]

سقمـي مـن سُقـم أجفـانكُـمُ وبمعسـولِ الثنـايـا لـي دُوي[7]

لـم يَـرق لـي منـزلٌ بعـد النّقـا لا ولا مستحسَـنٌ مـن بعـد مـي[8]

---

(١) الكاشح: من أضمر العداوة؛ وهو هنا يحمل المرء على ملذات الدنيا. وكان هذا يضمر العداء قبل البعد، فلما نأى الحبيب نشر بغضه.

(٢) يقول: صام عمره كله عن رؤية الأغيار منتظراً فيض الأسرار على قلبه والتجليات، يسهر في طاعة ليل غفلته ونهار يقظته.

(٣) الصادي: العطشان، ملتاح: مشتاق؛ المعنى: قل أيها السائق إنك تركت الصب ظمآن الى طيفكم. وسبب الظمأ انه شرب من بحر التوحيد بعد أن تجلى له الحبيب، وكل من شرب من هذا البحر يظل ظامئاً اليه. ولا دواء له يروي غليله الا الاضمحلال بالكلية.

(٤) عي: عاجز؛ ومعناه: ان هذا الصب حائر في مصيره أيختتم بالسعادة؟ أيختتم بالشقاء؟ وهي حيرة معجزة.

(٥) يزوي: يسر ويطوي. يقول: لم أخترع ما أذكره لكم من المعاني الالهية. لقد تجمعت معاني الحق في باطني.

(٦) في باطني جراح كلما شكوت ألمها ازداد قلبي اشتعالاً.

(٧) دوي: تصغير دواء؛ يقصد بالعين وجفونها صور الأكوان المحسوسة وقد انكسرت من بهائها الأجفان. وجعل الكسر في الأجفان تنزيهاً للحق تعالى؛ ومعسول الثنايا كناية عن حضرة الأسماء الالهية الأربعة: الحي، العالم، المريد، القادر.

(٨) النقا: قطعة من الرمل محدودبة، وهي هنا كناية عن المقام المحمدي النقي. لقد دخل الشاعر طريق الحق بعد مجاهداته في طريق السلوك، فبان له ان المقامات كلها تجتمع في المقام المحمدي. فلم يرقه شيء بعد ادراك الروعة في هذا السر المحجوب.

نحلت جسمي نحولاً خَصرها منه حالي، فهو أبهى حُلَّتي[1]

عدتُ مما كابدتْ من صدِّها كبدي حلف صدًى، والجفن ري[2]

واجداً منذ جفا بُرقعها ناظري من قلبهِ في القلبِ كي[3]

أيٌّ عيش مرّ لي في ظلّه أسفي إذ صارَ حظي مِنه أي[4]

---

(١) الخصر: كناية عن نفس السالك، وهي وسط بين عالميه الأرضي والإلهي؛ والنحول: الضعف.

(٢) يقول: صدت الحبيبة فارتوى جفني بالبكاء وظلت كبدي حرى صادية.

(٣) كنى بالبرقع عما حال بينه وبين مشاهدة محبوبه.

(٤) صار حظي: فات، ولم يبق منه غير الاسى.

ابن عربي

هو محمد بن علي بن محمد بن عربي الطائيّ الاندلسيّ (٥٦٠ هـ/ ١١٦٥ م - ٦٣٨ هـ/ ١٢٤٠ م) لقِّب بالشيخ الأكبر، فيلسوف، متصوِّف. ولد في مرسية بالأندلس، وانتقل إلى إشبيلية، وزار الشام، والعراق، والحجاز. أنكر عليه المصريّون «شطحات» صدرت عنه، فعمل بعضهم على إراقة دمه، فحُبس، ثمّ نجا من الحبس، فذهب إلى دمشق حيث تُوفِّي فيها. كان قدوة القائلين بوحدة الوجود، له نحو أربعمئة كتاب، منها «الفتوحات المكّيّة»، و«محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار»، و«فصوص الحكم»، و«مفتاح الغيب»، و«التعريفات»، و«ديوان شعر». وقد كتب عنه كثيرون قدحاً ومدحاً.

ومن قصائده الصوفيّة نقتطف ما يلي

* * *

من ترجمان الأشواق

دين:

لقد صارَ قلبي قابلًا كلَّ صورةٍ فمرعًى لغزلانٍ، وديرٌ لرهبانِ[1]

(١) يريد: ان الأحوال الصوفية قد تعاقبت على قلبه فاتخذ الله فيه أشكالًا مختلفة، فإذا قلبه يصبح مرعى للحب وديرًا للصلاة.

وبيتٌ لأوثـان، وكعبـةُ طـايـفٍ   وألـواحُ تـوراةٍ، ومصحـف قـرآن[1]

أدينُ بديـنِ الحـبِّ أنّـى تـوجهـت   ركائِبُهُ، فالحـبُّ دينـي وإيمـانـي[2]

حب:

رأى البرقَ شرقيًّا فحنَّ إلـى الشـرقِ   ولو لاح غربيًّـا لحـنَّ الى الغـربِ[3]

فـإن غـرامـي بـالبـريـق ولمحِـهِ   وليسَ غرامي بالأمـاكـن والتـربِ[4]

روت لـي الصَّبـا عنهـم حـديثًـا معنعنًـا   عن البث، عن وجدي، عن الحزن، عن كربي

عن السُّكر، عن عقلي، عن الشوق، عن جوًى   عن الدّمع، عن جفني، عن النار، عن قلبـي

عن الدّمع، عن جفني، عن النار، عن قلبي

بـأن الذي تهـواهُ بيـنَ ضلـوعكـم   تقلّبه الانفـاسُ جنبًـا إلـى جنـب[5]

فقلـتُ لـه: بلِّـغ اليـه بـأنّـه   هو الموقد النارَ التـي داخـل القلـب

فإن كان اطفـاءٌ، فـوصـلٌ مُخلَّـدٌ،   وان كان احراقٌ فلا ذنب للصـب[6]

لقاء:

طـال شـوقـي لطفلـةٍ ذاتِ نثـرٍ   ونظـامٍ، ومنبـرٍ، وبيـان[7]

---

(١) بيت الأوثان: كناية عن الحقائق الالهية التي يسعى اليها: والطواف في الكعبة: أراد به الأرواح القدسية التي تحيط بقلبه، وألواح التوراة: العلوم الموسوية التي انتهت اليه؛ والقرآن: لما احتواه من الحكمة المحمدية.

(٢) يريد: ان الحب هو العنصر الجامع بين ما تفرق من مظاهر الحقائق والأديان.

(٣) الشرق: موضع الذات الالهية، والغرب: عالم الحس والظاهرة الكونية.

(٤) لا يميل إلى هذه المظاهر الكونية المحسوسة الا بمقدار ما يتجلى فيها المعشوق الالهي.

(٥) في هذا البيت وما سبقه ما يدل على درجات التقرب والأحوال التي تتولد في حياته الشعورية.

(٦) تملكته النشوة، فإن اسدلت الحجب أرجىء الاتصال، وإن ظل التجلي تم الفناء.

(٧) انه مشوق إلى التي في حوزتها الحكمة وأسرار الحق. وفي شرح ابن عربي أنه أراد أنواع =

من بناتِ الملوكِ، من دار فرسٍ — من أجلِّ البلاد، من اصبَهان[1]

هي بنتُ العراق، بنتُ إمامي — وأنا ضدّها، سليلُ يماني[2]

لو ترانا برامةٍ نتعاطى — أكؤسا للهوى بغير بَنان

والهوى بيننا يسوقُ حديثًا — طيِّبًا مطربًا بغيرِ لسان

لرأيتم ما يَذهبُ العقلُ فيه — يَمنٌ والعراقُ معتنقان

حنين:

يا مَبسمًا أحببتُ منه الحَببا — ويا رضابًا ذقتُ منه الضَّرَبا[3]

يا قمرًا في شفَقٍ، من خَفَرٍ — في خدّه لاح لنا مُنتقبا

لو أنهُ يُسفِرُ عن برقعهِ — كان عذابًا، فلهذا احتجبا

شمسُ ضحًى في فلكٍ طالعةٌ — غصنُ نقًى في روضةٍ قد نصِبا[4]

ظِلْتُ لها من حذر مرتقبًا — والغصنُ أسقيه سماءً صيِّبا[5]

إن طلعت كانت لعيني عجبًا — أو غرَبت كانت لِحَيْني سببا

= الحكمة الصوفية التي وراء حجاب «نظام الفارسية».

(١) من بنات الملوك: لأنها متصوفة عارفة، والمتصوفون ملوك على هذه الأرض.

(٢) أراد بالعراق: القوة والامتناع وعراقة الحكمة؛ وباليمن: الايمان، وما فيه من الحكمة الطاهرة والنفس الرحماني. وهو يقيم الطباق بين خصائص العاشق والمعشوق والأضداد قد اجتمعت في ذات الحق، فهو على حد قول ابي سعيد الكراز مجتمع الأضداد: الأول والآخر، والظاهر والمكنون.

(٣) الحبب: المقصود به هنا ما يتفرق على اديم النفس من نفحات الحياة الالهية والعلم الالهي؛ الرضاب: أراد به علم الاتحاد وحسن طعمه في مشاعر الفؤاد.

(٤) إشارة إلى التبدل والتحول في الصور.

(٥) جعل يرتقبها قبل كل شيء في كل شيء؛ الغصن: كناية عن العلم الالهي الذي قد يسقى فيثمر به قلبه.

مُذ عقَد الحسنُ على مفرِقها تاجًا من البرِّ، عشقتُ الذهبا[1]

جمال:

طلعت بينَ أذرعات وبُصرى بنتُ عشرٍ واربعٍ ليَ بدرا[2]

قد تعالتْ على الزمانِ جلالًا وتسامت عليه كِبرًا وفخرا

كلُّ بدرٍ إذا تناهى كمالاً جاءهُ نقصه ليُكمل شهرا

غيرَ هذي، فما لها حركاتٌ في بروجٍ، فما نشفّعُ وترا[3]

حُقّةٌ أودعت عبيرًا ونشرًا روضةٌ أنبتت ربيعًا وزَهْرا[4]

انتهى الحسنُ فيكِ أقصى مداهُ ما لِوسعِ الأمكان مثلك أُخرى

★ ★ ★

... أنا على حُكم النوى فليس شيءٌ بيدي

مقيدٌ في وقتنا ما بين أمسٍ وغدِ[5]

جسمي لُجَينٌ خالص حقيقتي من عسجد[6]

كالقوسِ نشئي، ولذا عينُ قوامي حيَدي[7]

يقول ربي: انه خلقني في كَبدِ

---

(١) يريد بالذهب التحرر من ادران العالم المحسوس.

(٢) لأن هذه الأماكن هي آخر الحدود التي بلغها النبي في سفره إلى سورية؛ وبنت أربع عشرة: دلالة على النفس الصافية الكاملة؛ لأن ١+ ٢+ ٣+ ٤ تعادل ١٠ وهي العدد الكامل. فإذا أضفنا اليها العدد ٤ ساوت ١٠ + ٤ = ١٤، وهذا ما يجاوز الكمال بكمال مضاف اليه؛ والقمر يكتمل بدرًا في الليلة الرابعة عشرة لاستهلاله.

(٣) أي: أنها في كمالها غدت مستقلة عن كل شيء إذ لا يجانسها شيء.

(٤) العبير والنشر: استعارة تدل على العلوم الالهية.

(٥) النوى: البعد؛ انه عبد الغد، والزمان العابر.

(٦) حقيقتي من عسجد: أي خالصة من المادة، فإذا هي صفت صفا الجسم أيضًا.

(٧) الحيد: الميل والاعوجاج، كأنما يريد ان المتناقضات قد اجتمعت فيه.

فكيف أرجو راحةً ما دمتُ في ذا البلد[١]

لو لم يكُنْ لي كفؤًا كخالقي من أحدِ

فالنعتُ نعتٌ واحدٌ في عين ذات العدَد

وانني لِخَالِقي في خَلقِنا كالعدد[٢]

طبيعةُ الكونِ له أهلٌ، وعين الأحد

بعلٌ لها، فاجتمعا على وجودي وقدِ[٣]

ما قلتُ ذا عن نظرٍ قد قام بي في خَلَدي

وإنما قرَّره عندي رسولُ الصَّمَدِ

فكان يُملي، وأنا أكتبُ عنه بيدي[٤]

وهكذا الأمرُ، ولا يعرفه من أحدِ

غيرُ إمامٍ سابقٍ بالخير، أو مُقتصدِ[٥]

---

(١) في ذا البلد: عالم الأجسام.

(٢) في الأبيات الثلاثة ان الله لا شبيه له، غير أن الكون صدر عن صدور الأعداد عن الواحد، ونسبتها اليه كنسبة الأعداد الى الواحد مصدرها، وهي نظرية الاسكندرانيين، تحدرت اليهم من الفيثاغوريين.

(٣) أهل: امرأة؛ عين الأحد: عين الله الواحد؛ بعل: زوج؛ يقول: يحمل جسمي خصائص الطبيعة في اخلاطها الأربعة، وتحمل روحي ما تراه عين الله وتعرف، فإذا انا سليلهما. وفيه رجوع إلى مبدأ القطبية من ان القطب قد تفرع جسده فاتخذ الكون أشكاله الجسمانية، وتفرعت روحه المنحدرة من روحه تعالى فسرت في الكائنات.

(٤) النظر: النظر الفلسفي والبرهان العقلي. يقول: هذا ما لم يثبته البرهان، وإنما قررته تعاليم النبي في شرعه، فأملى النبي وجعل الشاعر يدوّن ما أملي عليه.

(٥) ان هذا السر لا يدركه أحد غير العارفين من أهل التصوف: أما سائر الناس فلا يرقون إلى الحال الذوقية، فقصروا عن ادراكه، وغابت عنهم الحقائق؛ وستبقى الحقيقة محجوبة عنهم إلى أن يعودوا إلى المصدر الذي انبثقوا منه.

والغيـــرُ لا يعـــرفـــه في الحال، بـل فـي الأبـد
وكـــلُّ فـــرعٍ راجـــعٌ لأصلـــه لـــم يَـــزِدِ

وحدة وكثرة:

إلهي! إذا نـاديـتُ فـالسَّمـع أنتمـو ولبّاكَ مَن لبـاكَ انـت المتـرجـمُ[1]
تـوحّـدت الأشيـاءُ إذ كنـتَ عينهـا ومـا ثـمَّ إلا سـامـعٌ ومكلِّـمُ
بِـ« كُنْ »، وهو قول الله، والأمر أمـره وقد جاء في القرآنِ معنـاه عنكـمُ[2]
تقسَّمَ في الاحساسِ مَن هـو واحـدٌ عـزيـزٌ، نـزيـه الذاتِ، لا يتقسَّمُ[3]
بـإخبـاره عـن نفســه، لا بعقلِنـا فيُعلـنُ مـا عقلـي بـه يتكتـمُ[4]
نظـرتُ إليـه مـن قـريـبٍ، وانّنـي بحـدّي بعيـدٌ، والحـدودُ تـوهـمُ[5]
إذا كـان مـن سميتُـم الغيـرَ عينـهُ ففـي نفسـهِ، مـن نفسـه يتحكّـمُ[6]

---

(١) تُرجم الكلام: التبس؛ وترجم: فسر كلامه بلسان آخر. يريد: اناديك يا الهي، وانت تسمع، فصوت ندائي صوتك، ومسمعي مسمعك، وأنت التعبير الأكمل عما يجول في نفسي، كان ملتبسًا، مبهمًا، فأوضحته في تجليك في الوجود.

(٢) في البدء لم يكن في الوجود إلاك. كنت المتكلم وكنت السامع: قلت للأشياء كوني فكانت، وخرجت من السديم فاتخذت شكلًا. والكائنات متحدة ما بينها لأنها متحدرة من أصل واحد هو الله، أو لأن الله وهي شيء واحد. كان ذلك كله بأمره تعالى، وهذا ما جاء في القرآن الكريم.

(٣) يقول: إن الله الواحد، المنزّه عن الجسمانية، قد تفرّع في الكون المحسوس اجزاء ومظاهر.

(٤) تجلى الله في الكون، وتجليه أسمى تعبير لما يضمره عقلي ويعجز عن وصفه.

(٥) أنا قريب منه بذوقي وروحي، بعيد عنه لأنني في عالم الأحجام والأشكال؛ غير أن الحدود التي تفصلني عنه ليست غير أوهام الحجب المادية، فالله في الكون بأسره تراه أنّى تلفتَّ في القريب والبعيد.

(٦) تحكم: فعل ما أراد. يقول: ان كان الذي اعتبرتموه غيرًا، هو الله بعينه، فمعناه ان الغير وهو شيء واحد لا فرق بينهما؛ وما دام امر نفسه متروكًا له، فإن الأشياء المغايرة كلها خاضعة لأمر قضائه يسيرها على هواه.

قضاء وقدر:

حكم الطبيعة في الأجسام معتبرُ ... لأنها أصلها، والأصل يُعتبر
فانظر إليها إذا طالَ الزمانُ بها ... تُبدّد الشملَ لا تُبقي ولا تذَر[1]
إن العذاب لها مِثلُ النعيم بها ... وذنبها عند أهل الكشْف مُغْتفر[2]
الله حكّمها فينا وأحكمها ... فما لها عن نفوذِ حُكمه وزرُ[3]
فيها يعذّبنا، فيها يُنعمنا ... وليس يخلص من أحكامها بَشرُ
سبحانَ من أوسعَ الأشياء رحمتهُ ... في الخير والشر علمًا، هكذا الخبر[4]
جلَّ الالهُ، فما تحصى عوارفُه ... فالكلُّ منه، كما قد شاءه القدَرُ

شوق واتصال:

كلُّ من رامَ في الوجودِ اتصالا ... بوجودي، قد رامَ أمرًا محالا
قد قطعنا لرؤية الله شوقًا ... واشتياقًا، فيافيًا، ورمالا[5]

---

(١) الطبيعة أصل الأجسام كلها، وما انبثق منها يعود لينحل فيها. وهذا هو مبدأ ابن عربي في الطبيعة، وهو أنها لا يعروها زيادة أو نقصان، وإنما هي باقية في حدود النواميس التي رسمت لها.

(٢) لا تفرق الطبيعة بين الخير والشر، والعذاب والنعيم. وقد مر بنا أنها في نظر الشاعر اعتبارات نسبية. ويضيف: ان العارفين الذين انقشع لهم الحق من أهل التصوف تفهموا كنه الأمور، وبان لهم ان المتناقضات متساوية ما بينها، مختلفة في المظهر، متحدة في الجوهر.

(٣) الوزر: المعتصم، والجبل المنيع.

(٤) ابن عربي شأن المتصوفة تفاؤلي المذهب، إذ يرى الكائنات مغمورة بالخير الالهي. فالله يعلم الأشياء لأنه خلقها، وبما أنه علمها وخلقها فهو يحبها. ثم يضيف: ان الوجود بأسره صادر عنه، مسير بمشيئته، وهو وحده يعرف الخير المخبوء وراء الشر الظاهر.

(٥) ان الذي يريد الاتصال بذات الحق، ذاتي، فكأنه يطلب المستحيل، وهو يحدثك عن صحارى العطش، والعذاب، والصبر التي اجتازها. تقلّه إلى محبوبه قافلة الشوق.

ثـم إنـي لمّـا وصلـتُ إليـه   لـم أجـد غيرنـا فـزدتُ نكـالا

قلتُ: ربـي! فقـال: لبّيـك عبـدي،   لـم أجـد غيـرَ حيـرةٍ لـي ضلالا[1]

كـلُّ قلـبٍ يبغـي الوصـولَ اليـه   مُعْلَـمٌ بـالفِـراقِ منـه تعـالـى

ثـم لمـا أتـاهُ لـم يُلـفِ إلا   عـدَمًـا حـاصلاً، وقـد كـان آلا[2]

مـا رأينـاه فـي سـوى الحق عينًـا   وقصـاراه أن يكـونَ خيـالا

بقلـوبٍ دَنـت إليـه اشتيـاقًـا   فكسـاهـا مهـابـةً وجمـالا

لا، وحـقِّ الهـوى، ومتَّبعيـه   ما رأينـا فـي الهجـر إلا الوصـالا[3]

لـم يَنـل كـلُّ طـالـبٍ مستفيـدٍ   عيـنَ كـونِ الحبيـب إلا كَلالا

كـلُّ نقـصٍ تـراه فهـو كمـالٌ   للـذي جـاء فيـه أن المثـالا

يستـرُ الشـيء خلفَـه، وهـو كشـفٌ   عنـد مـن يعـرفُ الحلال حلالا[4]

حكَـم العِلـمُ ان مـا كـان رَجمًـا   انـه كـان فـي الهـواء اشتعـالا[5]

وأتـى الربُ للحـرارة فيهـا   رحمـةً للـورى، فمـدّ الظلالا

---

(١) النكال: العذاب؛ لما وصلت إلى الحق الالهي التفت فوجدتني ووجدته. فما زادني ذلك غير حيرة وعذاب وايغال في مهمة الجهل.

(٢) آل: سراب؛ ان القلب الذي احتوى الصفات الالهية واستعد لتلقي حقيقة الحقائق والوصول إلى الحبيب، ينفطر كلما فارق محبوبه، حتى إذا رجع المتصوف اليه من جديد انعدم فيه، والذي كان يراه غيرًا لم يكن بالواقع الا سرابًا.

(٣) الهوى: الحب الصّوفي؛ متبعيه: العارفين من أهل هذا المذهب. اما قوله: ما رأينا في الهجر الا الوصال، ففيه احتمالان: ١) ان الهجر بحد ذاته باعث على التقرب من الحق؛ ٢) ان الله متفرع في العالم فليس ثمة قرب ولا بعد ولا مكان ولا زمان، فحيثما التفت، وانى كنت، فانت حيال الحق.

(٤) ان المتصوفة الذين ينقشع لهم الحق يدركون ان النقص بحد ذاته كمال، وان المثال الاتم كامن خلف ظاهر الموجودات.

(٥) العلم: يريد به المعرفة الصوفية. الرجم: الظن.

انغماس وفناء:

رأيتُ الذي لا بدّ لي منه جهرةً ولم يكُ إلا ما رأيتُ من الكون

... وما عجبي من واحدٍ عنه واحدٌ كما قيل، لكن من وحيد عن اثنين[1]

فلولاهُ لم أُوجَد، ولولاي لم يكن ولا بدَّ لي، في كون ذاتي، من اثنين

حقيقةُ ذاتي من حقيقةِ ذاته، ولا بد منْ ذاتي، فلا بد مِن تَيْن[2]

إذا كان عيني عينه، فمن الذي تحكَّم فيه بالنوى حاكم البَيْن؟[3]

---

(١) ان أعجب ما في الأمر اننا اثنان نستحيل واحدًا.

(٢) البيتان متكاملان؛ فالله أوجد الكون وأسرى في الانسان النفحات الرحمانية ليهتدي بها إلى معرفته. وغاية الله من الخلق ان يُعرف، ولا يعرف الله إلا الانسان، وإذًا فغاية الله من خلقه إنما هي صنع الانسان. ولذا قال: فلولاه لم أوجد، ولولاي لم يكن، فمراده فيه ان الانسان يدرك الله دون سائر المخلوقات، وانه دونها طرًا يتلقى صور الله وصفاته، فكلاهما أبدع الآخر.

(٣) النّوى: البعد.

رابعة بنت إسماعيل العدوية

صوفيّة كبيرة، وعابدة شهيرة استفتاها في دقائق التصوف كبار المتصوِّفة في عصرها. قال سفيان الثوري: مرّوا بنا إلى المؤدّبة، ولا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها. وقال ماسينيون عنها وعن رابعة القيسيّة: هاتان الزاهدتان، وكلتاهما من أهل المذهب البصريّ، كان تحمّسهما لحياة الزهد مؤدّيًا إلى معالجة أحوال صوفيّة مختلفة، وإلى البحث في فروض دقيقة في العمليات والعقائد. وقال مصطفى عبد الرازق: وعندي من التعسف أن ينسب إلى رابعة العدوية وصاحبتها التصدي لمعالجة دقائق المسائل الفقهية والكلامية والصوفية. وقال: السيدة رابعة هي السابقة إلى وضع قواعد الحب والحزن في هيكل التصوف الإسلامي وهي التي تركت في الآثار الباقية نفثات صادقة في التعبير عن محبتها وعن حزنها وأن الذي فاض به بعد ذلك الأدب الصوفي من شعر ونثر في هذين البابين لهو نفحة من نفحات السيدة رابعة العدوية أمام العاشقين والمحزونين في الإسلام. توفِّيت سنة ١٣٥ هـ / ٧٥٢ م. وعندما حضرتها الوفاة قالت لخادمتها: يا عبدة، لا تُؤذني بموتي أحدًا، وكفّنيني في جبّتي هذه، وهي جبَّة من شعَر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون، فكفّنتها في تلك الجبّة.

وفيما يلي بعض من أقوالها

★ ★ ★

محبُّ الله لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه.

اكتُموا حسناتكم كما تكتمون سيِّئاتكم.

★ ★ ★

أستغفرُ الله من قلّة صدقي في قولي: أستغفر الله.

★ ★ ★

قالت امرأة لرابعة: إنِّي أحبُّك في الله، فقالت لها: أطيعي من أحببتني له.

★ ★ ★

اللهمَّ قد وهبتُ لك من ظلمني فاستوهبني مِمَّنْ ظلمته.

★ ★ ★

قال رجل لرابعة: إنِّي أحبك في الله، قالت: فلا تعصي الذي أحببتني له.

★ ★ ★

إنـي جعلتـك فـي الفـؤاد محـدِّثـي ... وأبحتُ جسمـي مـن أرادَ جلـوسـي

فـالجسـمُ منـي لِلجليس مـؤانس ... وحبيـبُ قلبـي فـي الفـؤاد أنيسـي

★ ★ ★

أُحِبُّـكَ حُبَّيـنِ حُـبَّ الهَـوَى ... وَحُبًّـا لِأَنَّـكَ أَهْـلٌ لِـذاكـا

فـأمّـا الذي هُـوَ حُـبُّ الهَـوَى ... فَشُغْلـي بِـذِكْـرِكَ عَمَّنْ سِـواكـا

وَأَمّـا الذي أَنْـتَ أَهْـلٌ لَـهُ ... فَكَشْفُـكَ لِلْحُجْـبِ حَتَّـى أَراكـا

فلا الحَمْـدُ فـي ذا ولا ذاكَ لـي ... ولكـنْ لـكَ الحَمْـدُ فـي ذا وذاكـا

★ ★ ★

قالت لأبيها: يا أبه، لست أجعلك في حلّ من حرام تطعمنيه، فقال لها: أرأيتِ إنْ لم أجد إلاّ حرامًا؟ قالت: نصبر في الدنيا على الجوع خير من أن نصبر في الآخرة على النار.

★ ★ ★

كانت رابعة إذا جنَّ عليها الليل قامت إلى سطح لها، ثم نادت: إلهي، هدأت الأصوات، وسكنت الحركات، وخلا كلّ حبيب بحبيبه، وقد خلوتُ بك أيها المحبوب، فاجعلْ خلوتي منك في هذه الليلة عِتْقي من النار.

★ ★ ★

لقي سفيان الثوريّ رابعة ـ وكانت زريّة الحال ـ فقال لها: يا أمّ عمرو، أرى حالًا رثّة فلو أتيتِ جارك فلانًا، لغيَّر بعض ما أرى، فقالت له: يا سفيان، وما ترى من سوء حالي؟ أَلَسْتُ على الإسلام، فهو العزّ الذي لا ذلّ معه، والغنى الذي لا فقر معه، والأنس الذي لا وحشة معه؛ والله لأستحيي أن أسأل الدنيا مَنْ يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها؟

★ ★ ★

قالت رابعة لسفيان: إنّما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يوم، ذهب بعضك ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكلّ، وأنت تعلم، فاعملْ.

★ ★ ★

كان أبو سليمان الهاشميّ له بالبصرة كل يوم غلّة ثمانين ألف درهم، فبعث إلى علماء البصرة يستشيرهم في امرأة يتزوّجها، فأجمعوا على رابعة العدويّة، فكتب إليها: أمّا بعد، فإنّ ملكي من غلّة الدنيا في كلّ يوم ثمانون ألف درهم، وليس يمضي إلّا قليل حتى أتمها مائة ألف إن شاء الله، وأنا أخطبك نفسك، وقد بذلت لكِ من الصّداق مائة ألف، وأنا مصيّر اليكِ من بعد أمثالها، فأجيبيني. فكتبت إليه: أمّا بعد، فإنّ الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن، فإذا أتاك كتابي، فهيِّىء زادك، وقدِّم لمعادك، وكن وصيّ نفسك، ولا تجعل وصيَّتك إلى غيرك، وصمْ دهرك، واجعلْ الموت فطرك، فما يسرُّني أن الله خوَّلني أضعاف ما خوَّلك، فيشغلني بك عنه طرفة عين، والسلام.



الحلاّج

هو الحسين بن منصور الحلاج (٠٠٠ ـ ٣٠٩ هـ/ ٩٢٢ م) يُعدّ، تارةً، في كبار المتعبّدين والزّهّاد، وتارةً في زمرة الملحدين. أصله من بيضاء من فارس، ونشأ بواسط العراق، وانتقل إلى البصرة. ظهر أمره سنة ٢٢٩ هـ فاتّبع بعض الناس طريقته في التوحيد والإيمان، ثمّ كان يتنقّل في البلدان وينشر طريقته سرًّا. وقالوا: إنّه كان يأكل يسيرًا، ويصلّي كثيرًا، ويصوم الدّهر، وإنّه كان يُظهر مذهب الشّيعة للملوك العبّاسيّين، ومذهب الصّوفيّة للعامّة، وهو في تضاعيف ذلك يدّعي حلول الإلهيّة فيه. وكثرت الوشايات به إلى المقتدر العباسيّ، فأمر بالقبض عليه، فسجن، وعُذّب، وضُرب، وهو صابر لا يتأوّه، ولا يستغيث. قال ابن خلكان: قطعت أطرافه الأربعة، ثمّ حُزَّ رأسه، وأحرقت جثّته، ولمّا صارت رمادًا أُلقيت في دجلة، ونصب الرأس على جسر بغداد. وأقوال الباحثين فيه كثيرة. له أكثر من أربعين كتابًا لم يصلنا منها شيء. وفيما يلي بعض أشعاره الصّوفيّة.

الحب ما دام مكتومًا على خطرِ

وغاية الأمن أن تدنو من الحذرِ

وأطيب الحبِّ ما نَمَّ الحديث بهِ

كالنار لا تأتِ نفعًا وهي من حجرِ

★ ★ ★

من بعد ما حضر السجّان واجتمع

الأعوان واختط اسمي صاحب الخبرِ

أرجو لنفسي براءً من محبّتكم

نعم! إذا تبرّأت من سمعي ومن بصري



سقوني وقالوا لا تغنّي ولو سقوا

جبال حنين ما سُقيت لغنّتِ

تمنّت سُليمى أن أموت بحبّها

وأسهل شيءٍ عندنا ما تمنّتِ



ما زلت أطفو في بحار الهوىٰ

يرفعني الموج وأنحطُّ

فتارة يرفعني مَوْجُها

وتارة أهوي وانحطُّ

حتى إذا صيّرني في الهوىٰ

إلى مكان ما له شطُّ

ناديت يا من لم أبح باسمه

ولم أخنه في الهوىٰ قَطُّ

تقيك نفسي السوء من حاكم
ما كان هذا بيننا الشرطُ

★ ★ ★

نديمي غير منسوبٍ
إلى شيء من الحيفِ
سقاني مثلما يشر
بُ، فعلُ الضيفِ بالضيفِ
فلمَّا دارت الكأس
دعا بالنطع والسيفِ
كذا من يشرب الرا
حَ مع التنِّين في الصيفِ

★ ★ ★

لئن ذقت فيك كؤوس الحِما
مِ لما قال قلبي لساقيه: لا
وما كنت ممَّن تشاكى الهوى
ولو قدّني مفصلاً مفصلا
رضيت - وحقك - كلّ الرِّضا
إذا كان يرضيك أن أُقتلا

فلا عيب أن مُتُّ موت الكرام

كما مات في الحبّ من قد خلا

* * *

يا لائمي لا تلمني في هواه فلو

عاينتَ منه الذي عاينتُ لم تَلُمِ

ضَحّى الحبيب بنفسي يوم عيدهم

والناس ضحّوا بمثل الشاء والغنمِ

للناس حَجّ، ولي حجّ إلى سكني

تُهدىٰ الأضاحي، وأهدي مهجتي ودمي

يا من به علقت روحي فقد تلفت

وجدًا فصرت رهينًا تحت أهوائي

أبكي على شجني من فرقتي وطني

طوعًا وسعّدني بالنوح أعدائي

أدنو فيبعدني خوفي فيقلقني

شوق تمكّن من مكنون أحشائي

وليس يعلم ما لاقيت من أحدٍ

إلاّ الذي حلّ منّي في سويدائي

ذاك العليم بما لاقيت من دنفٍ

وفي مشيئته موتي وإحيائي

قل لي ـ فديتك ـ يا سمعي ويا بصري

لم ذي اللّجاجة في بعدي وإقصائي

إن كنت بالغيب عن عينيّ محتجبًا

فالقلب يرعاك في الإبعاد والنائي

* * *

كفىٰ حزنًا أنّي أناديك دائبًا

كأنّي بعيد أو كأنك غائبُ

وأطلب منك الفضل من غير رغبة

فلم أرَ قبلي زاهدًا وهو راغبُ

* * *

الصب، ربٌ، محبّ

نواله منك عجبُ

عذابه فيك عذبُ

وبُعدُه عنك قربُ

وأنت عندي كروحي

بل أنت منها أحبٌّ

وأنت للعين عينٌ

وأنت للقلبِ قلبُ

حبيبي من الحبِّ إنِّي
لما تُحبّ أُحِبُّ

* * *

فما لي بُعْدٌ بَعْدَ بُعْدِك يومًا
تيقنت أنَّ القرب والبُعد واحدُ
وإنِّي - وإن أُهجرت - فالهجر صاحبي
وكيف يصحُّ الهجر والحبُّ واحدُ

* * *

وليلة الهجر - إن طالت وإن قصرت -
فمؤنسي أمل فيه وتذكارُ
إنِّي لراضٍ بما يرضيك من تلفي
يا قاتلي، ولما تختار أختارُ

* * *

وما وجدت لقلبي راحة أبدًا
وكيف ذاك وقد هُيِّئتُ للكدرِ
لقد ركبت على التغرير وا عجبًا
ممَّن يريد النَّجا في المسلك الخطرِ
كأنَّني بين أمواج تقلِّبني
مُقَلَّبًا بين إصعادٍ ومنحدرِ

ألحزن في مهجتي والنار في كبدي
والدَّمع يشهد لي فاستشهدوا بصري

* * *

فأنت في سرّ غيب همّي
أخفىٰ من الوهم في ضميري
تؤنسني في النهار حقًّا
وأنت عند الدُّجى سميري

* * *

إذا ذكرتك كاد الشوق يقلقني
وغفلتي عنك أحزان وأوجاعُ
وصار كلِّي قلوبًا فيك واعية
للسُّقم فيها وللآلام إسراعُ

* * *

مكانك من قلبي هو القلب كلّه
فليس لشيء فيه غيرك موضعُ
وحطتك روحي بين جلدي وأعظُمي
فكيف تراني - إن فقدتك - أصنعُ

* * *

هـو اجتبـانـــي وأحيـانـــي وشــرّفنـــي
والكـل بـالكـلّ أوصـانـــي وعــرّفنـــي
لـم يبـقَ فـي القلـب والاحشـاء جـارحـة
إلاّ وأعـــرفـــه فيهـــا ويعـــرفنـــي

★ ★ ★

مـزجـت روحـك فـي روحـي كمـا
تُمْــزَجُ الخمـــرة بـــالمـــاء الزلال
فـــإذا مسَّـــك شـــيء مسّنـــي
فـــإذا أنـت أنـا فـــي كـــلّ حـــال

★ ★ ★

يـــا نسيمَ الرِّيـحِ قـولـي للـرَّشـــا
لـــم يـــزدْنـــي الوردُ إلّا عطشـــا
لـــي حبيـــبٌ حُبُّـــهُ وســـط الحشـــا
إنْ يَشَـــأ يَمْشِـي علـى خَـدِّي مَشَـى
روحُـــهُ روحـــي وروحـــي روحُـــهُ
إنْ يَشَـــأْ شِئْـــتُ وإنْ شِئْـــتُ يَشـــا

★ ★ ★

مـــا لـــي بغيـــرك أنس

إذ كنــت خــوفــي وأمنــي

فـــأنْـــتَ كـــلَّ التمنّـــي

★ ★ ★

رقيبـان منـي شـاهـدان لحُبِّـه

واثنـان مِنِّـي شـاهـدان قـرانـي

فمـا جـال فـي سرّي لغيـرك خـاطـر

ولا قـال - إلاَّ فـي هـواك - لسـانـي

بقلبـي وروحـي والضميـر وخـاطـري

وتـردادِ أنفـاسـي وعقـدِ لسـانـي

★ ★ ★

أنتـم ملكتـم فـؤادي

فَهِمْـتُ فـي كـلِّ وادي

ردّوا علـيَّ فـؤادي

فقـد عـدمـت رُقـادي

أنـا غـريـب وحيـد

بكـم يطـول انفـرادي

★ ★ ★

ادنُ منِّـي ولا تخـافـن غـدري

ليس يخشى الخليلُ غَدْرَ الخليلِ

إنَّ أدنى الذي ينالك منّي

سترُ ما يُتّقى وبَثُّ الجميلِ

★ ★ ★

والله لو حلف العشّاق أنهمُ

موتى من الحبِّ أو قتلى لما حَنَثُوا

قوم إذا هُجِروا من بعد ما وُصلوا

ماتُوا وإن عاد وَصْلٌ بعده بُعِثوا

ترى المحبِّين صرعى في ديارهمُ

كفتيةِ الكهف، لا يدرون كم لبثوا

★ ★ ★

يا موضع الناظر من ناظري

ويا مكان السرّ من خاطري

تراك ترثي للذي قلبه

معلّق في مخلبي طائرِ

★ ★ ★

أقلّب قلبي في سواك فلا أرى

سوى وحشتي منه وأنت به أُنسي



ملحق

ما كُتب على القبور

تُوُفِّيَ رَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ فَكُتِبَ عَلَى قَبْرِهِ هٰذِهِ الأَبْيَاتُ:

يَا وَاقِفِينَ أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُوا ... أَنَّ ٱلْحِمَامَ بِكُمْ عَلَيْنَا قَادِمُ

لَوْ تَنْزِلُونَ بِشِعْبِنَا لَعَرَفْتُمُ ... أَنَّ ٱلْمُفَرِّطَ فِي ٱلتَّزَوُّدِ نَادِمُ

لَا تَسْتَغِرُّوا بِٱلْحَيَاةِ فَإِنَّكُمْ ... تَبْنُونَ وَٱلْمَوتُ ٱلْمُفَرِّقُ هَادِمُ

سَاوَى ٱلرَّدَى مَا بَيْنَنَا فِي حُفْرَةٍ ... حَيْثُ ٱلْمُخَدَّمُ وَاحِدٌ وَٱلْخَادِمُ

★ ★ ★

وَمِمَّا وُجِدَ عَلَى قَبْرٍ:

إِنَّ ٱلْحَبِيبَ مِنَ ٱلْأَحْبَابِ مُخْتَلَسُ ... لَا يَمْنَعُ ٱلْمَوْتَ بَوَّابٌ وَلَا حَرَسُ

فَكَيْفَ تَفْرَحُ بِٱلدُّنْيَا وَلَذَّتِهَا ... يَا مَنْ يُعَدُّ عَلَيْهِ ٱللَّفْظُ وَٱلنَّفَسُ

لَا يَرْحَمُ ٱلْمَوْتُ ذَا جَاهٍ لِعِزَّتِهِ ... وَلَا ٱلَّذِي كَانَ مِنْهُ ٱلْعِلْمُ يُقْتَبَسُ

قَدْ كَانَ قَصْرُكَ مَعْمُورًا لَهُ شَرَفٌ ... فَقَبْرُكَ ٱلْيَوْمَ فِي ٱلْأَجْدَاثِ مُنْدَرِسُ

★ ★ ★

قَالَ آبْنُ الزَّقَّاقِ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَات وَأَوْصَى أَنْ تُكْتَبَ عَلَى قَبْرِهِ:

أَإِخْوَانَنَا وَٱلْمَـوْتُ قَـدْ حَـالَ دُونَنَـا   وَلِلْمَوْتِ حُكْمٌ نَافِـذٌ فِـي ٱلْخَلائِـقِ
سَبَقْتُكُـمُ لِلْمَــوْتِ وَٱلْعُمْــرُ طَيَّــةُ   وَأَعْلَـمُ أَنَّ ٱلْكُـلَّ لَا بُــدَّ لاَحِقِــي
بِعَيْشِكُمُ أَوْ بِآضْطِجَاعِيَ فِـي ٱلثَّـرى   أَلَم نَكُ فِي صَفْوٍ مِنَ ٱلْعَيْشِ رَائِـقِ
فَمَنْ مَرَّ بِي فَلْيَمـض بـي مُتَـرَحِّمَـا   وَلَا يَـكُ مَنْسِيًّـا وَفَـاءُ ٱلْأَصَــادِقِ

★ ★ ★

أَمَرَ أَبُو ٱلصَّلْتِ ٱلإِشْبِيلِيُّ أَنْ تُكْتَبَ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتُ عَلَى قَبْرِهِ:

سَكَنْتُـكِ يَـا دَارَ ٱلْفَنَـاءِ مُصَــدِّقًــا   بِـأَنِّـي إِلَــى دَارِ ٱلْبَقَــاءِ أَصِيــرُ
وَأَعْظَمُ مَا فِـي ٱلْأَمْـرِ أَنِّـيَ صَـائِـرٌ   إِلَى عَادِلٍ فِي ٱلْحُكْـمِ لَيْسَ يَجُـورُ
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ أَلْقَاهُ عِنْـدَهَـا   وَزَادِي قَلِيـلٌ وَٱلــذُّنُــوبُ كَثِيــرُ
فَـإِنْ أَكُ مَجْـزِيًّـا بِـذَنْبِـي فَـإِنَّنِـي   بِشَـرٍّ عِقَـابِ ٱلْمُـذْنِبِيـنَ جَـدِيــرُ
وَإِنْ يَـكُ عَفْـوٌ ثَـمَّ عَنِّــي وَرَحْمَــةٌ   فَثَــمَّ نَعِيــمٌ زَائِــدٌ وَسُــــرُورُ

★ ★ ★

حُفِرَتْ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتُ عَلَى قَبْرِ آبْنِ بَاقٍ وَهِيَ مِنْ تَصْنِيفِهِ:

تَرَحَّـمْ على قَبْـرِ آبْـنِ بَـاقٍ وَحَيِّـهِ   فَمِنْ حَقِّ مَيْتِ ٱلْحَيِّ تَسْلِيـمُ حَيِّـهِ
وَقُلْ أَمَّنَ ٱلرَّحْمَـانُ رَوْعَـةَ خَـائِـفٍ   لِتَفْـرِيطِـهِ فِـي ٱلْـوَاجِبَـاتِ وَغَيِّــهِ
وَإِنِّــي بِفَضْـــلِ ٱللهِ أَوْثَــقُ واثِــقٍ   وَحَسْبِي وَإِن أَذْنَبْـتُ حَسْـبُ صَفِيِّـهِ

★ ★ ★

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ ٱلْمَقَّرِيُّ ٱلْخَيَّاطُ عَلَى لِسَانِ مَيْتٍ:

أَيُّهَا ٱلـزَّائِــرُونَ بَعْــدَ وَفَــاتِــي جَـدَثًــا ضَمَّنِــي وَلَحْــدًا عَمِيقًــا
سَتَرَوْنَ ٱلَّـذِي رَأَيْـتُ مِـنَ ٱلْمَــوْ تِ عِيَــانًــا وَتَسْلُكُــونَ طَــرِيقًــا

★ ★ ★

نَظَمَ أَسْعَدُ مُصْطَفَى ٱللُّقَيْمِي قَبْلَ مَوْتِهِ تَارِيخًا لِقَبْرِهِ:

قَبْرٌ بِـهِ مَـنْ أَوْثَقَتْـهُ ذُنُـوبُـهُ وَعَدَا لِسُوءِ فِعَالِـهِ مُتَخَـوِّفَـا
قَدْ ضَاعَ مِنْهُ عُمْـرُهُ بِبَطَـالَـةٍ وَٱلْعَيْشُ مِنْهُ بِٱلتَّكَدُّرِ مَا صَفَـا
مَاذَا طَوَى قَبْرُ ٱللُّقَيْمِي أَرِّخُوا مُسْتَمْنِحٌ لِلْعَفْوِ أَسْعَدُ مُصْطَفَـى

★ ★ ★

لَمَّا قُتِلَ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزَنٍ ٱلْحِمْيَرِيُّ دُفِنَ فِي صَنْعَاءَ بِمَقْبَرَةٍ وَوُضِعَ فِي سَرِيرِهِ عِنْدَ رَأْسِهِ لَوْحٌ قَدْ كُتِبَتْ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتُ:

أَنَا ٱبْنُ ذِي يَزَنٍ مِنْ فَرْعِ ذِي يَمَـنِ مَلَكْتُ مِنْ حَدِّ صَنْعَـاءَ إِلَـى عَـدَنِ
جَلَبْتُ مِنْ فَارِسٍ جَيْشًا عَلَى عَجَـلٍ فِي ٱلْبَحْرِ أَحْمِلُهُمْ فِيهِ عَلَى ٱلسُّفُـنِ
حَتَّى غَزَوْتُ بِهِـمْ قَـوْمًـا مُهَـاجِـرَةً فِي ٱلْبَرِّ جَاسُوا خِلَالَ ٱلْحَيِّ مِنْ يَمَنِ
بِٱلْخَسفِ وَٱلذُّلِّ حَتَّـى قَـالَ قَـائِلُهُـمْ ذُوقُوا ثِمَارَ ذَوَاتِ ٱلْحِقْدِ وَٱلْإِحَـنِ
فَـأَوْقَعُـوا بِهِـمِ وَٱلـدَّهْـرُ ذُو دُوَلٍ حَتَّى كَأَنَّ مَغَـارَ ٱلْقَـوْمِ لَـمْ يَكُـنِ
حَتَّى إِذَا ظَفِرَتْ نَفْسِـي بِمَـا طَلَبَـتْ وَزَالَ مَا كَانَ فِي قَلْبِي مِـنَ ٱلْحَزَنِ
وَنِلْـتُ أَكْثَـرَ مِمَّــا كُنْــتُ آمِلُــهُ مِنْ قَتْلِيَ ٱلْحُبْشَ حَتَّى طَابَ لِي وَطَنِي

جَاءَ ٱلْقَضَاءُ بِمَا لَا يُستَطَاعُ لَـهُ   دَفْعٌ وَلَا يُشْتَرى يـا قَـوْمُ بِـٱلثَّمَـنِ
مِنْ بَعْدِ مَا جُبْتُ أَحْـوَالًا مُصَـرَّمَـةً   قُطْرَ ٱلْبِلَادِ فَلَـمْ أَعْجِـزْ وَلَـمْ أَهُـنِ
قَدْ صِرْتُ مُرْتَهَناً فِـي قَـاعِ مُظْلِمَـةٍ   للهِ دَرِّيَ مِـنْ ثَـاوٍ وَمُـرْتَهَـنِ

* * *

كان على قبر يعقوب بن ليث مكتوب هذه الأبيات عملها قبل موته، وأمر أن تُكتب على قبره، وهي هذه:

سَلَامٌ علـى أهْـلِ القُبُـورِ الدَّوارِسِ   كأَنَّهُـمُ لـم يَجْلِسُـوا فـي المَجَـالِسِ
وَلَمْ يَشْرَبُوا مِـنْ بَـارِدِ المـاءِ شَـرْبَـةً   وَلَمْ يَأْكُلُوا مـا بَيْـنَ رَطْـبٍ وَيَـابِسِ
فَقَدْ جاءَني المَـوْتُ المَهُـولُ بِسَكْـرَةٍ   فَلَـمْ تُنْجِنِـي مِنْـهُ أُلُـوفُ فَـوَارِسِ
فَيَـا زائِـرَ القَبْـرِ اتَّعِـظْ واعْتَبِـرْ بِنَـا   وَلاَ تَكُ فـي الدُّنْيَـا هُـدِيـتَ بـآنِسِ

* * *

فهرس المحتويات